



الفرع الخرافي

ومشروعية العمل بأحد الوجهين فيها
بلا نعصب ولا تاشيم

لفضيلة الأستاذ الإمام السيد

محمد زكي إبراهيم

راند العشيرة المحمدية

قدم له وعلق عليه

محي الدين حسين يوسف الاستوي

سنايد المؤلف ومن خريبيه الأزهري الشريف

طبوعات ورسائل المشيخة المحمدية

للعدد ٥٨٩٦٧٩٨ - ٥١١٦-٤٧

الفروع الخرافية

ومشروعية العمل بأحد الوجهين فيها
بلا نغصب ولا نأشيم

لفضيلة الأستاذ الإمام السيد

محمد زكي إبراهيم

راند العشيرة المحمدية

قدم له وعلق عليه

محي الدين حسين يوسف الاستوي

تلميذ المؤلف ومن خريجي الأزهر الشريف

الفاخرة - الطبعة الأولى

١٩٩٥-١٤١٦ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم وتعريف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ،
وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين . . أما بعد :

* سماحة الإسلام ويسره :

إن الإسلام دين تجميع لا تفرقة، وتكتيل لا شذمة، ﴿وَأَعْتَصِمُوا
بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً
وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢].

والإسلام دين سماحة ويسر ورحمة وتفاهم، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]،
وفى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدين يسر،
ولن يُشَادَّ الدين أحدًا إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا...»^(١)
فتأمل الفضل فى هذا الحديث، وفى التاريخ للبخارى رفعه :
«أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»^(٢).

(١) رواه البخارى [١٣٠/١ فتح]، والنسائى [٢٧٣/٢]، والبيهقى [١٨/٣].

(٢) علقه البخارى فى صحيحه [١٦/١] ، ووصله فى الأدب المفرد [٢٨٣] ،

وفى التاريخ، عن أبى هريرة، ورواه أحمد [٢١٠٧] عن ابن عباس،

وحسن إسناده الحافظ فى الفتح، ونرجو ملاحظة معنى (وقاربوا).



وروى البيهقي عن جابر - رضى الله عنه - ، عن النبي ﷺ : «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق؛ فإن المُنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى»^(١).

وينبغي أن يتغنى كلُّ فيما يذهب إليه وجه الله، وليحذروا الهوى والتعصب، ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. ثم يكون كل إنسان ملزماً بما صح عنده دون تأثيم سواه.

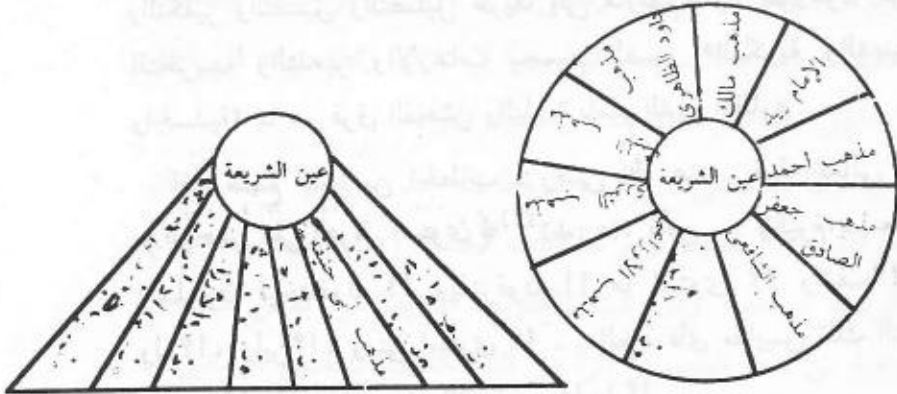
• احترام الخلاف البناء :

وقواعد الشريعة مرنة ، مناسبة لكل زمان ومكان ، والاختلاف الفرعى البناء ، ذو الفائدة (الذى هو من باب الرحمة والتيسير) يولد الاحترام والتقدير؛ لأنه فى الحقيقة توسع وتنوع، ليس فيه تضاد ولا تنطع، وهو ثمرة طبيعية للاجتهاد الذى جاءت به الشريعة الإسلامية والطبيعة البشرية.

وقد أثر عن السلف الصالح من الأئمة احترام آراء بعضهم واجتهاداتهم، كما سترى مفصلاً فى هذا الكتاب، وقد ذكر شيخنا (١) رواه البيهقي (١٨/٣، ١٩) عن جابر وعبد الله بن عمرو ، ورواه أيضاً البزار عنهما، وضعّف، وانظر كنز العمال ٥٣٧٧، ٥٣٧٨، ٥٣٧٩.

- ومن قبله الشعرانى فى الميزان - صورة تقريبية تمثيلية للخلاف ، وهى قول شيخنا: «.. فإذا فرضنا (دائرة ذات مركز)، كانت كل الطرق الشرعية خطوطاً داخلية تصل ما بين محيط الدائرة ونقطة المركز، وكيفما كان اتجاه نقطة البداية؛ فلا خلاف فى النهاية، ولا فى الأصول العامة، ولكن فى فروع كيفية الوصول !!».

وإليك - يا أخى - رسماً توضيحياً لهذه الصورة ، ولصورة أخرى مقارنة لها :



ومما حفظ عن أهل العلم من قواعد الاحترام والأدب قولهم : «العلم رحم بين أهله» ، و«اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية» ، وقولهم: «رأى صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب»، و«اختلاف العلماء رحمة، واتفاقهم حجة»، و«كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب الروضة ﷺ؛ فهو المعصوم»، وقال

ابن القيم في شرحه على كتاب الهروي : «شيخ الإسلام - يعنى الهروي - حبيب إلينا ، ولكن الحق أحب إلينا منه»، وقال غيره: «من لم يعرف اختلاف العلماء فليس بعالم» .

* خلافاً لا قيمة لها :

وإنه لما يحز في النفس أن ترى طوائف من المسلمين تتشبه بخلافات لا قيمة لها، وتعمل على إحياء نار الخلاف حولها كلما خمدت، وتتخذ الهجوم على سلف المسلمين وعلماهم وسيلة لأهدافهم، والتكفير والتفسيق والتضليل طريقاً إلى مآربهم، ولا يتورعون عن التخريب والتدمير والإرهاب بجميع الصور الفكرية والدينية والجسدية بما هو فوق الفحش والبذاءة باسم الدين المظلوم .

لقد سمع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١) [طه: ٥]، فأمن .. واليوم يسمعا المسلمون فيختلفون !! ويفترقون !! ما استوى ؟ وكيف ؟! ولم ؟!، وأين ؟!، ومتى استوى ؟! .. إلخ، فأى مقاييس تلك التى تغيرت ؟! وأى معايير هذه التى نسير عليها ؟!

وتقوم الدنيا ولا تقعد على خلاف فرعى حول مسألة الوسيلة والقبور ، وليس أقل من التكفير والتشريك وسيلة للحل عندهم !! فقد احتكروا الحق، وجعلوه لهم وحدهم تعسفاً ومجازفة .

(١) مما سمع من آيات أسباب إسلامه .

وحماة الإسلام ، وعلماء الملة : الأشاعرة، يصفهم هؤلاء الحمقى بالتبديع والضلال، فى غمز وهمز ولمز، ولو كان فيهم مثل: (ابن حجر^(١) والنووى والهيتمى) ، أو (الغزالي وإمام الحرمين الجوينى)، أو (القاضى عياض وابن رشد)، أو آلاف من علماء الإسلام غيرهم .

لقد همس بعضهم فى أذنى: فى مصر - الآن - كل عشرين شاباً يكونون جماعة ، لها اسم وشكل وزى ، وليس من بينها جماعتان متفتتان ، وقد بحث عما يكون سبباً لاختلافها وتطاحنهما، فلم أجد إلا الجهل والتعصب والتخلف واصطياد التوافه .

إن وقتاً قد مضى ، وأثره وآثاره لما تنته بعد، بلغ فيه التعصب أن كان المسلمون يصلون أربع جماعات مختلفة ، فى المسجد الواحد، والوقت الواحد، وما زالت المحارِب الأربعة فى بعض المساجد الباقية من تلك العصور، أثراً من آثار الخلاف التعصبى البغيض ، الذى لم ينتج إلا التفرق والضعف .

(١) وانظر إلى هؤلاء الذين علقوا على (فتح البارى) للحافظ ابن حجر، وبثوا الكثير من سمومهم فيما حشوه عليه، حتى قال بعضهم فى تعليق له هناك على بعض المسائل : رحم الله الشيخ - يعنى : ابن حجر - فإن هذا من الكفر !؟ ، ولا تعليق منا ، ولا كرامة لهم .

وبلغ من التعصب أن تقدم حنفى إلى مفتيه، وسأله : هل يجوز لحنفى أن يتزوج من شافعية؟! فسكت المفتى قليلاً متفكراً فى أن الشافعية يجوزون أن يقول المسلم : أنا مؤمن إن شاء الله، والحنفية لا يجوزون ذلك، وبعد أن كاد يجزم بعدم الجواز، راجع نفسه، وقال: يجوز قياساً على الزواج من الكناينة^(١)!!

وما زالت تلك الأحقاد والأطماع والمكائد ، التى احتفظت لنا بصورتها كتب التاريخ والتراجم ، بين الطوائف والفرق والمذاهب ، دليلاً دامغاً على بُعد هؤلاء جميعاً عن طريق الحق، والنبع الصافى للحنفية السمحة .

* ما يقبل الخلاف وما لا يقبل:

والذى يقبل الخلاف من أحكام الشريعة الغراء هو: (الظنيات)، وهى (مواطن الاجتهاد واختلاف النظر)، ومنها:

١- فى المعارف الكلامية : ما كان من اختلاف النظر كأول المعرفة، وقضايا القضاء والقدر، والكسب ، وآيات الصفات، ومباحث الرؤية، ونحو ذلك مما يحتمل النظر والخلاف.

(١) فانظر إلى التردى الذى وصل إليه الحال بالمتعصبين !! وبدلاً من أن يحمل هذا المفتى قول الشافعى: أنا مؤمن إن شاء الله على التبرك أو خلافه، كما صرحوا فى كتبهم ، حمله على الشك فى الإيمان !! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٢- فى الأصول الفقهية : ما اختلف فيه استنباط العلماء كالقياس، والنسخ، وأحاديث الآحاد، والمجمل والمبين، ونحو ذلك .

٣- فى الأحكام الفقهية : ما اختلف اجتهاد العلماء فيه، كبعض سنن الصلاة وهيئاتها، ومقدار الرضاع المحرم للعلاقة الزوجية، وبعض مسائل النكاح والطلاق، وغير ذلك مما هو معروف فى كتب الفقه المقارن .

والذى لا يقبل الخلاف من أحكام الشريعة الغراء هو: (القطعيات)، وهى التى قام الدليل على أنها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان، وهى (ليست محلاً للاجتهاد)، ومنها:

١- فى العقائد : ما قام الدليل اليقيني عليه، وهو ما علم من الدين بالضرورة، وما صار حداً فاصلاً بين الإيمان والكفر، كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، وختم النبوة بنينا محمد ﷺ، وعصمته ﷺ، والبعث، والحساب، والجنة والنار، ونحو ذلك .

٢- فى الأصول الفقهية : القواعد الكلية التى أخذت من الشريعة بنص واضح ليس فيها ما يعارضه تقريراً أو تفرعاً، أو استنبطت بعد استقرار تام ، وأجمعت الأمة عليها، وذلك كقاعدة: «لا ضرر ولا ضرار»، و«الحدود تدرأ بالشبهات»، و«لا يعبد الله إلا بما شرع»، و«المعاملات تطلق حتى يثبت المنع»، ونحو ذلك .

٣- في الأحكام الفقهية : ما ورد فيه دليل قطعي بالوجوب أو المنع ، كوجوب الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وحرمة الخمر ، وقتل النفس بغير الحق ، والزنا ، وغير ذلك .
وليس كل خلاف جاء معتبرا

إلا خلافاً له حظ من النظر

• أنواع من الخلاف :

وإذا كان كلامنا عن الاختلاف في الفروع مناصباً على الفروع الفقهية باعتبارها الخلاف السائد؛ فإنه يحتوى أيضاً (بصورة ضمنية): الاختلاف في مناهج وطرق التربية النفسية والروحية، والارتقاء بالسلوك الإنساني .

كما يتضمن : الاختلاف في تطبيق النظريات الاجتماعية الهامة، كمنظريّة الإصلاح، ونظريّة التكافل والتعاون ، وطرق تنظيم المجتمع، وإدارة المؤسسات والهيئات .

والاختلاف المرفوض قطعاً (شكلاً وموضوعاً): هو كل اختلاف يُبنى على التعصب، والغرور، والإعجاب بالرأى، واحتكار الصواب، وسوء الظن بالآخرين ، وكل اختلاف غايته الحرص على الزعامة والظهور، وفرض الرأى بالقوة، وكل اختلاف يدعو إلى قومية (غير الإسلام)، أو عنصرية، أو حزبية تعصبية .

إن جميع ما ندعوا إليه من التجمع ونبذ التعصب ليس بدعاً من القول؛ فما زال هذا هو دأب السلف الصالح ، ورسالة العلماء .

وهو نفس ما يدعوا إليه علماؤنا في أعرق جامعات الإسلام (جامعة الأزهر الشريف) ، والتي يدرس طلابها المذاهب الإسلامية المختلفة، من غير تعصب، ولا تحيز، مع مراعاة آداب الخلاف ، وأن النظر إنما هو إلى الدليل ورجحانه^(١)، مع دراسة الأديان الأخرى، وأقوال المبشرين والمستشرقين؛ ليظهر الحق من الباطل، والغث من السمين، وهو نفس ما تقرره المؤتمرات الفقهية بالأزهر والقرويين ، وهو ما قرره «ندوة الفقه الإسلامي العالمية» بعمّان .

• تأريخ الخلاف وتدوينه :

كما هو معلوم: إن الخلاف قد ظهر بين الصحابة في فهم بعض الأحكام والنبي ﷺ بينهم ، ثم اتسعت رقعة الخلاف وزادت أسبابه بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقد كان لكل فقيه من الصحابة أتباع وتلاميذ ورواة، لازموه حتى صارت مدارس للفقه لها مناهجها. ولما بدأ عصر التأليف والتدوين دوت كل مدرسة أقوالها، واشتغل الكثير من العلماء بتدوين الخلاف بغية الصواب والحق.

فأما في العقيدة فظهر رجلان في القرن الأول - وكثير من الصحابة

(١) بينما تمتع بعض البلاد والجامعات الإسلامية مجرد دخول كتب مخالفيها من المسلمين إلى أماكنها !! وهذا ظلم صارخ للعلم والعلماء .

موجود - فشغلا الناس وفرقا كلمة المسلمين، وكان من نتاجهما ومن اتبعهما تلك الفرق المختلفة التي ظهرت من شيعة ومعتزلة وخوارج وقدرية ومرجئة... إلخ.

هذان الرجلان هما: «سوسن» النصراني الذي أظهر الإسلام، وصحب «معبد بن عبد الله الجهني البصرى»، ونفث في صدره سمومه، وعلمه القول بالقدر، فكان «معبد» أول من قال بالقدر في الأمة المحمدية، فاشتغل عدد من الصحابة والتابعين بالرد عليه، وعلى رأسهم عبد الله بن عمر ومسلم بن يسار رضى الله عنهما، حتى أمر عبد الملك بن مروان بقتله وصلبه سنة ثمانين بدمشق.

وأما الرجل الثانى فهو اليهودى: عبد الله بن وهب بن سبأ، المعروف بابن السوداء، وهو الذى أحدث القول بالوصاية لعلى كرم الله وجهه، والقول برجعته، وأنه لم يُقتل وأن فيه جزءاً إلهياً... إلخ ما يعتقد بعض طوائف الشيعة إلى اليوم^(١).

وعن هذه الفرق واعتقاداتها والخلاف بينها وما بنى على ذلك من فروع عقديّة كتب الكثير من علماء المسلمين، ومن أقدم ما وصل إلينا من الكتب فى ذلك كتاب «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» للإمام أبى الحسن الأشعري شيخ أهل السنة والجماعة (ت ٣٣٠هـ)،

(١) راجع مقدمة «مقالات الإسلاميين للأشعري» لمحققه الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد. ففيها كثير من التفصيل المفيد عن هذين الرجلين.

ثم كتاب الرحالة المؤرخ أبى الحسن على المسعودى (ت ٣٤٦هـ) «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، ثم «الفرق بين الفرق» لأبى منصور البغدادي (ت ٤٢٩هـ)، ثم تتابعت الكتب والمؤلفات، ومن أشهرها كتاب «الفصل فى الملل والنحل» لابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـ)، و«الملل والنحل» للشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، وفى عصرنا هذا كثرت هذه المؤلفات جدّاً، ودرست الاختلافات فى فروع العقيدة الإسلامية والفرق فى الجامعات، خصوصاً الأزهر، فى أقسام العقيدة، بله، درست الاختلافات والفرق بين الأديان فى أقسام اللاهوت ومقارنة الأديان من الجامعات.

وأما فى اختلافات الفروع الفقهيّة فأقدم ما وصل إلينا من المؤلفات: موطأ مالك برواياته الكثيرة، فمع أن الموطأ كتاب حديث بالدرجة الأولى إلا أنه حوى أقوال كثير من الصحابة والتابعين وفتاويهم، وذكر شيئاً من الخلاف بينهم، وامتازت رواية محمد ابن الحسن للموطأ بأن محمداً ذكر فيها مقارنة بين ما أخذه عن أبى حنيفة وبين ما هو موجود فى الموطأ، وذكر فيها شيئاً من فقهه هو، وشيئاً من مذاهب التابعين ومن بعدهم.

ثم جاء الشافعى فألف كتاب «الأم» فعرض الخلاف بين شتى المدارس الفقهيّة فيه، فعقد فيه كتاباً فى اختلاف على وابن مسعود - رضى الله عنهما -، وكتاباً فى خلاف ابن عباس - رضى الله عنهما -

فى اليبوع، وبأباً فى خلاف زيد بن ثابت - رضى الله عنه - فى الطلاق، وبأباً فى ما اختلف فيه أبو حنيفة وابن أبى ليلى، وبأباً فى اختلاف مالك والشافعى، وبأباً فى خلاف عمر بن عبد العزيز فى عشور أهل الذمة ... إلى غير ذلك.

ثم ألفت الكتب فى الفقه المقارن، وقلّ أن تجد كتاباً فى الفقه إلا وقد تعرض لمسائل من هذا اللون قلّت أو كثرت، حتى صدرت فى عصرنا هذا الموسوعات الفقهية المتخصصة، ككتاب الفقه على المذاهب الأربعة وغيره، ودرّست مادة الفقه المقارن فى الجامعات والمعاهد.

ولاستكمال البحث نذكر أنه قد ألف علماء المسلمين كتباً كثيرة فى آداب البحث والمناظرة، وأسباب الخلاف، وأعدار الأئمة فيما ذهبوا إليه، والغاية من هذه الكتب إنما هى ابتغاء الحق والصواب، وترك الهوى والتعصب، ثم تجميع كلمة المسلمين، ولعلّ من أشهر ما كتب فى ذلك «الميزان الخضرية» للشعرانى، و«رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لابن تيمية، ثم «الإنصاف فى بيان سبب الاختلاف فى الأحكام الفقهية» لشيخ ولى الله الدهلوى (ت ١١٧٦هـ)، وغير ذلك كثير.

* الفرق بين النظرية والتطبيق :

بقى أمر مهم فى قضية الخلافات المذهبية هو الفرق عند الحكم بين النظرية والتطبيق ، والمبدأ والالتزام به، والعلم والعمل.

إن الشرع والعقل يحكمان باقتضاء العلم للعمل ، والنظرية للتطبيق، والمبدأ لممارسته والالتزام به، ومع ذلك فهناك بون شاسع بين القول والعمل، وذلك نتيجة حتمية للخلافات غير المجدية .

والسؤال الآن : كيف أعرف الصواب، وكيف يتسنى لى الحكم على ما أمامى من الفرق والجماعات : بالنظرية أم بالتطبيق، بالعلم أم بالعمل، بالكم أم بالكيف ؟!

فى الحقيقة السؤال مهم !! وعند كل عاقل جواب عليه .. ينبع من موقعه وفكره وإخلاصه.

ولست أكتب لأجيب على السؤال .. وإنما لأضعه أمام القارى الفاضل، لينظر: أين يقف؟! وما موقعه؟! وما هو واجبه نحو الله والوطن؟! ومن حقى هنا: أن أكرر وأقرر أن: النظرية والتقصيد شىء، والتطبيق العملى شىء آخر، قد يلتقيان فيندمجان ، أو يفترقان فينفصمان، وقد يكون بينهما رابط ونسبة تتأرجح قريباً وبعيداً .

فمثلاً : الإسلام شىء ، والمسلمون شىء آخر، والإسلام يحكم على المسلمين، ولا عكس، فالحكم القائم بالمصداقية هو فى الأصل على الإسلام ، وبمقدار تطبيق المسلم لدينه يرقى فى مراتبه ، وتنطبق عليه تلك المصداقية.

ونحو هذا فى الحكم بين النظرية والتطبيق فى جميع الفرق والهيئات والجماعات (الداخلة تحت اسم الإسلام).

وعموماً: للمجتهد إذا أخطأ أجر (لبدله وسعه في تحرى الصواب) قال تعالى ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨ ، ٧٩] فاختص سليمان بالفهم، وأثنى عليهما معاً بالحكم والعلم، فالقضية هنا قضية فاضل وأفضل منه، وفي حديث عمرو ابن العاص عند الصحيحين: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»، ولكن ليس لمن يقلد المجتهد أن يتبعه على نفس الخطأ إذا تيقن منه، وإلا فهو مأزور غير مأجور ولا معذور (خصوصاً إذا تبين له وجه الصواب)؛ فكيف إذا دعا إلى هذا الخطأ.

إن من حق كل مسلم أن يتبع أو يصحب أى مجتهد أو عالم أو مرشد أو شيخ على علته (التي أوجدتها ملابسات عصره وبيئته)، ولكن ليس من حقه أن يرث ويورث لمن بعده تلك العلات (ثم يلزم الناس بها كضرورة حتمية).

* المهمة الحقيقية :

إذا عرف كل إنسان: على أى ثغر يقف، والتمس العذر للآخرين، أصبح قابلاً للترقى فى مراقى الكمال، ومدارج الإصلاح، لأن هدفه قد صار نصرة الإسلام بنظرة (شمولية).

إننى فى الحقيقة اعتقد أن كل (مجموعة مسلمة) على ثغر من ثغور الإسلام تدفع عنه (فى حدود تخصصها وتوجهاتها)، وتلك هى مهمتها الأصلية، والاتفات عن تلك المهمة إلى محاربة مجموعة أخرى فى (خلاف فروعى) جريمة موبقة.

وأذكر أن مجلة (الأزهر) قد نشرت - منذ فترة - أن عالماً جليلاً من كبار علماء الأزهر - رحمه الله - قد زار إحدى الدول الأفريقية، والتقى هناك بعالم فاضل أسس مدرسة كبرى (زاد عدد طلابها على المائتين)، وتخصصت فى دراسة الأديان، والرد على المبشرين، وكان للعالم الأزهرى رأيه فى وجوب انصراف هؤلاء الطلبة إلى علوم الإسلام، وكان للعالم الفاضل صاحب المدرسة رأيه فى أنهم على ثغر فريد من ثغور الإسلام، ومع ذلك فإن اختلاف الرأى لم يفسد للود قضية، وإن كنا نرى الجمع بين الرايين لتعم الفائدة .

إن المهمة الحقيقية لعلماء الإسلام هى العمل على الاحتفاظ بروح الإسلام السمحة بين أصحاب التوجهات المختلفة ، الذى يحملنا حسن الظن على اعتقاد أنهم أرادوا خدمة الإسلام، ولكن أخطأوا السبيل فى ذلك .

* هذا الكتاب ومؤلفه :

إن هذا الكتاب هو بمثابة ورقة عمل إسلامية، لتحقيق مهمة العلماء في نبذ الخلاف، وجمع شمل المسلمين على كلمة واحدة، وهو - على صغر حجمه - يحوى عددًا من الحقائق والمسلمات والقواعد الأصولية الهامة التي ينبغي مراعاتها على كل مسلم، وأترك لك الكتاب لتتصفح فيه فتدرك ما أقول .

أما المؤلف فهو ممن يصدق عليهم - إن شاء الله - قول الرسول ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» (رواه ابن عدى وغيره، وصححه الإمام أحمد).

وقوله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» (رواه أبو داود والطبراني والحاكم) (١).

فهو: شيخنا الإمام «محمد زكى إبراهيم» العالم المحدث الأصولى الفقيه، المشارك فى عدم المنقول والمعقول، وهو ممن باشر العمل الإسلامى فى عدد من أهم مراكزه وثغوره؛ فقد كان أمينًا ورائدًا دينيًا

(١) وأكثر العلماء على القول بتعدد المجدد فى العصر الواحد، وللمجدد صفات كثيرة منها: أن ينفرد على أقرانه فى العلم، وأن ينخرم به القرن، وأن يكون من أهل البيت، وغير ذلك، انظره فى شروح «منظومة المجددين» للسيوطى، وفى «فيض القدير» للمناوى.

لجماعات الشبان المسلمين العالمية، والمؤتمر القرآنى، واللجنة العليا للدعوة بالأزهر، وكان رئيسًا لجماعة الرواد الأوائل، ثم هو مؤسس ورائد العشيرة المحمدية (جماعة صوفية سلفية شرعية)، تدعوا إلى الحب والسماحة والتجمع والوسطية، ومن قبل كان عضوًا فى جماعة (التقريب) (١)، والتي كان من أعضائها عدد من كبار علماء الأزهر وقتئذ، ثم هو قد مارس الدعوة الصوفية الشرعية فى مختلف مواقعها. فهو بحق متخصص فيما كتب، يمارس للدعوة إليه، وقد أصّل جميع ما ذهب إليه بالدليل والبرهان .

وإنما أقول كل هذا تعريفًا لا تزكية، وأحسبه كذلك، والله حسيبه، ولا أركى على الله أحدًا .



(١) جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية كان الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر وكيلها، والشيخ محمد تقى القمى سكرتيرها العام، وكان لها مجلة تصدرها هى «رسالة الإسلام»، ومن أعضاء التقريب وكتاب مجلتها الشيوخ: محمد محمد المدنى، وعبد العزيز عيسى، ومحمد عرفة، ومحمود شلتوت، ومحمد البهى، رحمهم الله تعالى . وقد فارقتها شيخنا عندما حادت عن المنهج المقبول كما فارق غيرها إذ خلط بين الحسنات والسيئات. وإنما البقاء بالالتزام والعمل لله وفى الله، وما كان لله دام واتصل، أو لغيره انقطع وانفصل.

الفرع الخرافي

وَمَشْرُوعِيَّةِ الْعَمَلِ بِأَحَدِ الْوَجْهَيْنِ فِيهَا
بِلَا نَعَصَبٍ وَلَا تَأْتِيمٍ

لِفَضِيلَةِ الْأَمْتَاذِ الْإِمَامِ السَّيِّدِ

مَحْمَدِ ذِكْرِ الْأَبْرَاهِيمِ

رَأْسِ الْعَشِيرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

قَدَّمَ لَهُ وَتَعَلَّقَ عَلَيْهِ

مُحْيِي الدِّينِ حُسَيْنِ يُونُسَ الْإِسْطَوِيَّ

تَلْمِيزَ الْمُؤَلِّفِ وَمِنْ خَرِيصِ الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ

وأحسب - يا أخي - أن الحديث قد طال بي في هذه المقدمة، وما زال في نفسى أحاديث وأحاديث... والحديث شجون، والكلام فنون، وقد ألقيت إليك مما عندى مفاتيحه، فاصنع بسمعك لحديث القلب، واشهد ببصيرتك ترجمان ما قلت، على طريق السماحة والحب.

وادع معي مخلصاً: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١) [الحشر: ١٠].

اللهم إن كان صواباً فمنك ، أو خطأ فمن نفسى والشيطان، ومغفرتك أوسع لى، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [مرد: ٨٨].

* وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم *

وكتبه تلميذ المؤلف

محى الدين حسين يوسف الإسئوى

(١) فانظر إلى أدب الداعين بهذه الآية الكريمة من طلبهم ألا يجعل في قلوبهم غلاً لمن آمن، وما التعصب فى الخلاف الفرعى إلا باباً عظيماً من أبواب هذا الغل الذى نعوذ بالله منه !!
وكل من قال: (لا إله إلا الله) فهو من الناجين - إن شاء الله، وإن وقع فى المحذور ، وإلا فتأمل : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] !!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾
﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾

ما هو هذا الكتاب ؟!

١- هذا الكتاب :

نقول ما قال أبو حنيفة : «إننا على صواب يحتمل الخطأ، وغيرنا على خطأ يحتمل الصواب».
ويقول الإمام جعفر الصادق: «حسبنا من المسلم ما يكون به مسلماً» ونحن معه
هذا الكتاب هو في واقع الأمر (مدخل، أو تمهيد مختصر، أو باب لتحقيق أحكام بعض المسائل الخلافية (المعقولة)، فيما عدا بعض الخلافات

الشاذة النادرة ، التي تستوجب موقفاً خاصاً ، ومعالجة أخص .

ونحن هنا نقدم صورة لبعضها ، فمثلاً قول بعضهم : إن ترك إحدى السنن ثلاث مرات في الصلاة يبطلها ، كيف؟ والصلاة لا تبطل إلا بترك (فريضة) ، ثم تبحث فلا تجد خطاباً إلهياً أفاد هذا الحكم ، وإنما هو إغراق في التعصب للمذهب لا غير ، وليس إلا .

إلام الخلاف ؟!

قال فضيلة الإمام الرائد :

إلام الخلاف على ذي (الفروع)

وكلٌ ينافح عن مذهبه

وليس الصوابُ بحكرٍ على

فقيه !! ولا مقتدٍ بعدُ به

تعددت (الطُرُق) نحو الصواب

فخذ ما نشاء ولا تشتبه !!

ومثلهُ بـ (الكعبة) المصطفى

ة ونحن حوالها «فانتبه» !!

(ديوان البقايا : ٨٦)

على أن القاعدة الأصولية تقرر أن الحكم الذي لا يكون سببه واجباً ، لا يكون في ذاته واجباً، أى: إن ترتيب بطلان الصلاة على ترك بعض السنن والمستحبات هو الباطل.

ومن هذا الباب أيضاً قول مَنْ قال من (المالكية): إن الطعام إذا وقعت فيه (قطرة) - أى نقطة - نبيذ يحرم أكله، ويرمى لكلبٍ أو لرجل (حنفى)!! ، وهو قول عصبى عنيف ، وهو مردودٌ عليه علمياً وعقلياً وأخلاقياً.

وقول آخر أنه لا يجوز للحنفى أن يتزوج بشافعية إلا قياساً على جواز الزواج باليهودية والنصرانية، وإلا فالزواج باطل إذا تزوجها على أنها مؤمنة، وهو قول غاية في العنف والعصية، وهو مرفوض من كل الوجوه.

وهناك مسائل محيرة منها: المأموم إذا لم يقرأ الفاتحة وهو خلف الإمام بطلت صلاته عند الشافعية، ثم هو إذا قرأها خلفه بطلت صلاته عند الحنفية، فصلاته كما موم باطلة قرأ أو لم يقرأ (بين الشافعية والحنفية)، وكذلك رفع اليدين قبل وبعد الركوع، فمنهم من قال: إنه واجب، تبطل الصلاة بتركه، ومنهم من قال: مبطل للصلاة، ومثل هذا كثير، وهو لا شك مما يستوجب أن يكون له بحث مقارن، على وزنٍ علمي للأدلة، وتحقيق دقيق. بين وجهات النظر، على صريح الكتاب وصحيح السنة.

ومثل هذا الذى نعانيه فى (علم الفقه) نجده أيضاً فى بعض العلوم الإسلامية الأخرى، والأمثلة عليه خصوصاً فى (علم التصوف) شتى مؤسفة.

٢- سماحة الإسلام :

ونحن هنا نرى ما رآه (الشيخ عبد الوهاب الشعرانى) من قبل فى كتابه العظيم المسمى (الميزان) ، وملخصه: إن كل ما لم يأت به حكم تحريمى نصى صريح قطعى من الكتاب والسنة؛ فهو على مختلف مراتبه الفقهية فى مختلف المذاهب - سنةً كان أو مندوباً أو مستحباً أو مكروهاً أو نحو ذلك - فهو يدور بين (الرخصة والعزيمة) ، والعمل بإحدهما بشروطه جائز مباح مشروع فى محيط شرع الله .

نقول: وهذا هو القول الموفق المسدد، والحكم الرشيد المخلد، الذى يدل بحق على سماحة الإسلام ويسره وسعة أفقه، وفيه المحافظة على وحدة الصف، وصحة المرونة، والتنزه عن التفريق والتمزيق.

وهنا لا بد أن يكون فى الاعتبار: أن (الأئمة الفقهاء من المذاهب الأربعة وغيرها) لم يجعلوا قط اجتهادهم تشريعاً إلزامياً لمن يأخذ به، وإنما هو وجه من وجوه الصواب ترجح عندهم، فنزلوا فيه على ما انتهى إليه اجتهادهم فى خدمة الدين، وتقريب أحكامه للجماهير،

وتيسير تطبيقه؛ فليس كل واحد يمكن أن يتفرغ للاجتهاد أو يصلح له، والمجتهد الصادق مثاب على خطئه وصوابه.

ونكرر أن الاجتهاد إنما يكون في الفروع كما بينا، أما الأصول فهي نصوص قطعية محكمة، لا يصل إليها تأويل ولا تعديل.

والتاريخ وكتب الأئمة كلها على أن كبارهم لم يتعصبوا لأرائهم، بل إن بعضهم كان يقلد في الأحكام بعضاً، وكانوا يأمرن باختيار ما به الخروج من الخلاف والخرج، ولم يدع أحدهم العصمة من الخطأ.

ولا اعتبار قط لفترة التعصب والتشردم، التي استحدثها الحمقى من رجال بعض المذاهب فيما مضى، حتى كادت تكون المذاهب عندهم أدياناً مختلفة، وقد ضربنا لك بعض الأمثال في بداية هذا البحث، وسوف نكرر ذلك فيما يأتي إن شاء الله، وإن كان قد بقي لهؤلاء الحمقى والمسجونين في زنازين العصبية والقبلية والانطواء والتخلف والتقوقع، ممن يزعمون أن الدين وقف عليهم، وحكر لهم وحدهم تحت اسم التمسلف أو ما هو منه زوراً، إن كان بقي منهم بقية، إلا أن مسار الحياة سيخلص الإسلام والمسلمين من ظلمات رأيهم وأخطار تفكيرهم، إن لم يكن اليوم فغداً بإذن الله، وإذا كانت لهم اليوم بالأحوال جولة، فإن للحق يوماً بالرجال صولة ودولة، والحق سمح رفيق مرن دقيق خالد إلى يوم القيامة.

٣- أمثلة أخرى من علم الحمقى :

أفرايت ما يقول بعضهم، لو أن رجلاً وهب بيته لله فجعله مسجداً فلا أجر له، لأن الحديث يقول: من (بنى) لله مسجداً، لا من (جعل) بيته مسجداً، يا للغباء!! والجهل الرخيص.

ويقول بعضهم: لو أن رجلاً استأذن ابنته البكر أن يزوجه فلاتاً، فقالت: (قبلت هذا)، فإن الزواج يصبح باطلاً، لأن الحديث يقول: إذن البكر (سكوتها)، وهذه تكلمت!! وهكذا تكون مهازل التمسلف المفسود والمسوخ.

وأنكر من هذا قول بعضهم: لو تبول رجل في وعاء ثم صبه في الماء الراكد لا ينجس هذا الماء، لأن الحديث يمنع البول مباشرة في الماء، فإذا لم يبل فيه مباشرة فهو طاهر مهما ألقينا فيه من البول من وعاء آخر!! ولا تعجب فعلى آثارهم أقوام في عصرنا أشد مسخاً، أو ليس قد أفتى أحد مشاهيرهم بتحريم أن تقود المرأة سيارتها!! كما أفتى أحد مشاهيرهم بتحريم إدخال (الخيار، والكوسة، والبادنجان، والموز) إلى البيوت إلا بعد تقطيعها قطعاً خارج المنزل حفاظاً على أخلاق النساء والبنات أن يتذكروا الصور الجنسية!! وأفتى آخر من مشاهيرهم بتحريم إدخال طعام (الكفتة) المشوية على (السيخ) إلى البيوت للسبب نفسه، وكذلك حرّم استعمال (خرطوم المياه) على السيدات، وهناك ما هو أدهى وأمر، مما نعف عن كتابته.

ونرى أن سبب هذا هو غلبة الشهوة الجنسية العارمة على هؤلاء الشخوص، لفرغ نفوسهم من حقائق التقوى، حتى إنه ليخشى منهم على أية سيدة أو فتاة من الأقارب والأجانب، مهما طالت لحاهم، واستهلكت شواربهم، مما جربه كل من عايشهم.

ثم: هل بعد هذا علم بالجهل بالعلم، وصدق رسول الله ﷺ: «ألا هلك المنتطعون»، وقد خصهم الله بالسفاهة، والتوقح، وعبوس الوجه، والجهامة، والتقطيب، والكبر، وسوء الظن بكل خلق الله، عقوبة عاجلة.

وإنما أضرب هذه الأمثال - والله المثل الأعلى - لتكون تأسية وتوعزية، لما يجده إخواننا من الأذى البالغ في خدمة التصوف الصحيح من هؤلاء وأمثالهم، وبخاصة أولئك المرتزقة من ورائهم في بلاد المسلمين تحت اسم السنة المظلومة، والسلفية المتبلاة، وتحت أسماء رنانة لجمعيات عميلة مكشوفة العورة، مستورة الهدف، تمهد بالاحتلال الفكري، للاحتلال الفعلى، ولا قوة إلا بالله.

٤- التصوف الصحيح جزء أصيل من الإسلام :

التصوف الذى ندعو إليه، وندافع عنه، وتنتشر بالانتساب إليه، هو: ما جاء به الوحي فيما ثبت بالكتاب والسنة، قبل كل شيء. إذن: فالتصوف قديم قدم الإسلام، وذلك أن من أهم أصول

التصوف: (١) التوحيد (٢) العبادة (٣) الأخلاق (٤) والعمل الشامل على ما تحمله هذه العناصر من فصول شتى وفروع، وهذه كلها منصوص عليها فى كتاب الله، بكل صراحة، لا تقبل التأويل، ولا التحوير والتبديل.

وهكذا يتأكد - بلا مرأى - أن التصوف جزء أصيل من صميم الإسلام، لأن هذه العناصر؛ أصول لا خلاف عليها فى حقائق الإسلام على الإطلاق.

أما المستحدث فى التصوف فهو المستحدث فى كل علوم الإسلام، حين أخذت هذه العلوم طريقها إلى التقعيد، والتفصيل، والتسجيل فى عهد التدوين، منذ بدأ فى أواخر القرن الأول الهجرى فما بعده. وقد اختصّ التصوف بخدمة علم الأخلاق التطبيقى (وهو الغاية الكبرى من التدين جميعاً)؛ لترويض الوحشية الإنسانية والارتقاء بها فى معارج التسامى إلى مقامات الخلافة عن الله فى الأرض، ثم الترقى فى مراتب القرب، والولاية، والوصول. وفى كل ذلك تفصيل وتفرع متكامل، لا يتسع له هذا المقام.

٥- الصوفية فى القرآن :

وقد وصف القرآن الصوفية - الذين ذكرنا بعض شأنهم من قبل ، وحفظ الزمن تاريخهم العظيم - وصفهم وصفاً مجمعاً ومفترقاً ، فالوصف المجمع نجده فى قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الآيات

المفصلة من أواخر سورة الفرقان، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ
وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ الآيات من أواسط سورة الأحزاب، وقوله تعالى:
﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...﴾ الآيات من سورة التوبة، والشروح
المستفيضة لها جميعاً عبارة وإشارة.

أما الوصف المفرق فهو في الآيات الكثيرات الداعية إلى التبعذ،
وإلى الفضائل، أمراً ونهياً، ثم القصص القرآني الشارح لبعض هذه
الآيات الجوامع نصّاً وتأويلاً.

فالصوفية عندنا - وفي القرآن - هم (عباد الرحمن) فهم أهل مقام
(العبودية)، التي شرف الله بها الأنبياء، و﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى
بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1]، ﴿نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44]، ﴿يَا
عِبَادِي...﴾، ﴿يَا عِبَادِ...﴾ الآيات. ومن بعدهم الوارثون من
العباد والعلماء والدعاة.

إذا كان قد غلب على السادة (أهل العبودية) اسم (الصوفية)
بفعل الحياة والظروف والبيئة، وتفاعلات المجتمع، وما يرتبط بظواهر
الحياة مما ذكره السادة المؤرخون؛ فهذه كلها قشور، وسطوح، لا تغير
من الحقيقة واللباب شيئاً.

فحقيقة التصوف إذن - وأخذاً مما قدمنا، ومن واقع الأمر، بداية
ونهاية - هو: (التقوى)، وهو: (الربانية) الإسلامية، وهو: (التبتل)،

وهو: (التزكية)، وهو: (التخلي عن كل دني، والتخلي بكل
سني)⁽¹⁾.

وإنما نعني هنا التصوف الراشد الواعي الذي لا نعرف غيره،
والذي من لم يمارسه؛ فقد فاته الخير الذي قد لا يعوض في
الدارين.

ولا علينا من تصوف المتدعة، والفلاسفة، وتصوف الجهل،
والتجارة، والتخريف، والتحريف، فذلك ما نكافحه دائماً لوجه الله
حفظاً لهذا التراث الشريف الغالي المخلد برغم كل ما أصابنا وما
لا يزال يصيبنا من البلاء المرّ في هذا السيل. والحمد لله رب العالمين.

وكتبه المفتقر إليه تعالى وحده

محمد زكي الدين بن إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي

رائد العشيرة المحمدية، وشيخ الطريقة المحمدية الشاذلية،

وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر المحمية

(1) راجع الملحق الصوفي في آخر الكتاب، ففيه تجلية لهذا البحث وتكملة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- الاستفتاح :

اللهم ربنا لك الحمد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال عبد ،
وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا رادّ
لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، لربي الحمد .
اللهم وتجاوز عن سيئاتنا ، ولا تعاملنا بما نستوجه ، وخذ بنواصينا
إلى ما فيه رضاك ، وأيدنا بسلطانك القاهر ، واكتب لنا التوفيق والعزة
والسداد ، وأذقنا حلاوة القرب منك ، والأنس بحضرتك .
(اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأنصاره
وأزواجه أمهات المؤمنين وعلى جميع التابعين إلى يوم الدين).



٢- مقدمة وتأصيل :

ترك رسول الله ﷺ المسلمين يوم تركهم أمة واحدة ، على المحجة
البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .
ثم كانت فتنة (عثمان) ، ومن بعدها فتنة الخلافة بين (على)
(ومعاوية) ؛ فانقسم الناس إلى (سنة) و(شيعة) و(خوارج) انقسامًا
دمويًا محزنًا .

وكان هناك خلاف فى مفاهيم بعض الفروع؛ فظهرت فرق (المعتزلة) بأقسامها، ثم وليتها طوائف أخرى (لا ترى اليوم منها باقية) فكان الانقسام الفكرى .

ثم استشرى الترف والانحلال واللامبالاة فى أواخر عهد بنى أمية؛ فتنجم أهل التقوى ليوقفوا تياره بالحكمة والموعظة الحسنة والقدوة العملية، فكان هذا التجمع بداية العهد الصوفى المستقل بشخصيته الخاصة، فهماً وعلماً، وأداء وعملاً، وتطبيقاً ودعوة، وظل كذلك يؤدى هذه الوظيفة المقدسة .

وهنا استغل بعض أصحاب المذاهب المتلوية من الباطنية والزنادقة ونحوهم هذا الوقت من سماحة الدعوة الصوفية ومرونتها وسعة أفقها؛ فالتصقوا بها ليحققوا أبعاداً معينة من أذى الإسلام فى الإسلام باسم الإسلام، ومن طريق أدق وأرق وأصفى مذاهبه النفسية، والخلقية، والروحية، والثقافية، والتعبدية، وهو (التصوف)، أعنى : التصوف الإسلامى الراشد المستنير.



٣- بداية انشقاق أهل السنة :

وهنا بدأ يدخل الانشقاق إلى صفوف أهل السنة ، واستفحل الأمر، باستشراء بعض المبتدعات والمناكير فى صفوف بعض الغافلين

أو المغفلين، من المنتسبين إلى التصوف بحق أو بباطل، وما من علم - على الإطلاق - ولا مذهب إلا له عيوبه، ولا طائفة - قط - إلا ولها مثالبها .

فإذا نحن أمام تقسيم جديد لأهل السنة ، فجماعة منهم تسموا بـ (السلفية) ، وآخرون تسموا بـ (الصوفية)، وتأججت نار العداوة السافر بكل قوتها حوالى القرن السابع حين تزعم الشيخ أحمد ابن عبد الحليم بن تيمية الحرانى حملته المعروفة على التصوف والصوفية ، على أسلوبه الخاص من التعميم والتهويل دون حذر ، واتخذ أسلوب الحكم على وجه واحد من الشئ ذى الوجهين، ثم هو يسحب هذا الحكم على الوجهين جميعاً، دون ما تفصيل، ولا مفاضلة، ولا احتياط برغم علمه وفضله.

وقد كان ابن تيمية رجلاً فيه ثورة وعنف وغضب وعصية محققة، وبغير حدود ولا قيود، ولو أن له كلاماً كثيراً طيباً ، عن بعض وجوه التصوف ، كرسالته المعروفة عن (الفناء) عند الصوفية، واجتهاداته المفيدة فى كثير من أبواب الفقه والكلام ، ومواقفه الطيبة التى يذكرها التاريخ، وكتابه المسمى (الصوفية والفقراء) .

وابن تيمية بشر ككل البشر يخطئ ويصيب ، ولا عصمة لبشر مهما بلغ شأنه (إلا الأنبياء) ، وقد عمقت عصية الشيخ ابن تيمية الهوة بين أهل السنة من الصوفية والسلفية، بما يعانى المسلمون أثره

الآن في كل مكان ، ولو أنه لم يكن يريد ذلك فيما اعتقد^(١).

وفي ظروف خاصة من العصر الأخير تبنى بعض كبار العلماء من العرب مذهب ابن تيمية ، وزاد عليه تشدداً وتعصباً؛ لأسباب (محلّية، وسياسية، وقبلية ، وعقدية)، ولم يكن أمامه فيما رأى إلا هذا العمل طريقاً لما رجحه من إصلاح ومصلحة. وما سعى إليه من تملك وتسلط وهيمنة ، سجلها التاريخ القديم والحديث بصفة خاصة، وعليك مراجعة كتابات الأجانب بصفة أخص.



٤- ماهية الخلاف القائم الآن :

فتجدد الخلاف بين أكبر طائفتين من أهل السنة حتى اليوم، وهو في الواقع العلمي والإنصاف الفكري والديني والثقافي خلاف فروعى عادى جداً لولا التعصب، فإنما هو أمور تتردد بين الحلال والحرام، وبين ما يجوز، وما لا يجوز، ولكن العصبية نقلته إلى الشرك والتوحيد، والكفر والإيمان، بمنطق فيه ألف نظر، وإن كنا قد

(١) وإذا كان الشيخ ابن تيمية قد اجتهد في عدد من المسائل فأخطأ؛ فإنه ليس لمن يقلده في خطئه عذر في متابعتة على هذا الخطأ ، كما أنه ليس له على هذا التقليد أجر. بل ربما جره ذلك إلى زور تنشق له الأرض وتخر الجبال هدأً . وإن من أهم أسباب هوة الخلاف: التعصب الأعمى للعقيدة المنحرفة، والتكفير والتشريك واحتكار الصواب.

أصبحنا نحس بمحاولات صادقة لتخفيف هذه الحدة الضارة من كل الوجوه، على يد بعض المصلحين من الأفراد والهيئات، ولكن في خفية وبطء واحتياط سياسى دقيق.

وكان قد جاء (ابن القيم) تلميذ ابن تيمية فشرح كتاب الإمام الهروى الصوفى شرحاً فيه كثير جداً من الخير، وكثير جداً من الإنصاف للتصوف السليم والصوفية الأبرار، برغم قسوته فى كثير من الأحيان على شيخ الإسلام الهروى، إلا أنه يكفيننا منه أن اعترف بأن التصوف عصارة الإسلام وإكسيره، وهو معراج الأرواح إلى معالم الأفراح، إقراراً عن نفسه وشيخه ابن تيمية^(١).

وإن اختلاف المذاهب الفقهية والطرق الصوفية والجمعيات الخيرية (١) ولابن تيمية عدد من الكتب فى التصوف منها: «كتاب التصوف»، و«كتاب السلوك»، وهما ضمن «الفتاوى الكبرى»، وله «التحفة العراقية فى الأعمال القلبية»، و«قاعدة الاستقامة»، و«قاعدة المحبة»، وله قواعد فى الشكر والرضا والصبر، وله «الصوفية والفقراء»، و«إنصاف التصوف» وهما مطبوعان. وخفف ابن القيم من غلواء شيخه وتشدده فى كتبه عن التصوف، ومنها: «مدارج السالكين»، و«عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»، و«طريق الهجرتين وباب السعادتين»، و«كتاب الفوائد»، و«الروح» وغيرها. وإن كان لابن القيم قد سائر شيخه فى كثير عن المسائل، ويكفى أن تعرف أن «منازل الساترين» للهروى كتيب صغير فى نحو خمسين صحيفة من القطع المتوسط، وشرحه ابن القيم فى «مدارج السالكين» فى ثلاث مجلدات. تربوا على خمسمائة وألف صحيفة من القطع الكبير.

هو اختلاف شكلي طبيعي، فكلها تدعو إلى الأصول المتفق عليها في الإسلام، وخلافها هو في الفروع القابلة للاجتهاد بالطبع، وقد اختلف المسلمون - وهم مع رسول الله ﷺ - في فرعية صلاة العصر في قريظة، واجتهدوا اجتهادين مختلفين، ورسول الله ﷺ بينهم؛ فلم ينكر عليهم، وكان للصحابة والتابعين (رضى الله عنهم) في الأمر الواحد آراء تختلف باختلاف وجهات النظر فيما يحتمله الدليل فكان اختلافهم رحمة، وهو فطرة إنسانية لا معدى عنها ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(١) [مرد: ١١٨، ١١٩]، وحمل الناس على رأى واحد فتنة كما قال مالك، فضلا عن أنه مستحيل لذاته ولغيره، ولذلك قال النبي ﷺ: «ثلاث من أصل الإيمان: الكف عن قال: لا إله إلا الله، لا تكفره بذنوب، ولا تخرجه من الإسلام بعمل...» الحديث^(٢).

ثم إن مطالب النفوس واختلاف البيئات والأذواق والأجواء

(١) نقل المفسرون عن الحسن في هذه الآية أنه قال: «أما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافاً يضرهم»، يعنى لأنه في مسائل الاجتهاد التي لا نص فيها بقطع العذر، بل لهم فيه أعظم العذر... إلخ ما ذكره الشاطبي في الاعتصام (٢/١٦٨)، وفي المسئلة تفصيل فانظره هناك.
(٢) رواه أبو داود [٢٣٥٢]، والبيهقي [٩: ١٥٩]، وسعيد بن منصور [٢٣٦٧] عن أنس رضى الله عنه، وأورده المنذرى في ترغيبه وسكت عليه، وفي إسناده يزيد بن أبي نشبة مجهول من الخامسة.

والملايسات والتربية والوراثة والفضل العلمى، كلها تستوجب خلافاً فرعياً تتماشى به الشريعة مع السنن الفطرية والواقع الفعلى، وهذا هو سبب اختلاف المذاهب والطرق والهيئات^(١) !! فهو اختلاف (١) ومن أسباب اختلاف الفقهاء خاصة، ونحب أن توضع في الاعتبار عند القارىء الفاضل:

- الاختلاف في فهم القرآن: فكثير من آيات القرآن ظنى الدلالة، بسبب الاشتراك اللفظى، وتعدد احتمالات الكلمة الواحدة من المعانى، أو بسبب تعارض ظواهر النصوص، أو عدم معرفة الناسخ من المنسوخ للمجتهد، أو المجهل والمبين، أو المطلق والمقيد، ونحو ذلك.
- الاختلاف في فهم السنة، وذلك بتفاوتهم فى العلم بها، وفى ثبوت بعض الأحاديث تبعاً لقواعد قبول الرواة، وتبعاً للقول بقبول المرسل، وخبر الواحد، وما يفيد، وعمل الراوى وتأثيره، ونحو ذلك.
- الاختلاف فى الاعتماد على مصادر التشريع: فمن الفقهاء من يقول بالقياس، والعرف، والاستحسان، والاستصحاب، والمصلحة العامة، ومنهم من لا يقول بذلك (جملة أو تفصيلاً)، كما أنهم يختلفون فى علل الأحكام ومدلولاتها، ونحو ذلك.
- الاختلاف فى أسباب وطرق الترجيح أو التوفيق إذا تعارض نصان.
- الاختلاف فى فهم بعض الأصول اللغوية: فمثلاً من الفقهاء من يرى أن النص حجة على ثبوت حكمه فى منطوقه، وعلى ثبوت خلاف حكمه فى مفهوم المخالف، ومنهم من لم ير ذلك.
- هذه أهم أسباب اختلاف الفقهاء، وقد تركنا التمثيل لها خشية الإطالة، ومن أراد التفصيل فعليه بكتب أصول الفقه، وما تعرض لقضية الاجتهاد والاختلاف من كتب العلماء.

الفترة الضرورية في جزئيات فرعية، تدور كلها في محيط الأصول الأساسية لا تتعداها، فلا تعتبر تفرقاً في الدين؛ فالقائل بأن الوتر ركعة أو ثلاث أو خمس لا يعتبر مفرقاً في دينه إذ كلها جاءت فيه.. وهكذا قس بقية الأحكام على المفاهيم والنصوص والتحرى فلا ترى تفرقاً أبداً.



٥- قضية الخلافات المذهبية :

أهل القبلة جميعاً إخواننا ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢] فلا خصومة أبداً بيننا وبين أية طائفة من طوائف أهل (لا إله إلا الله) سواء كانوا حنفية، أو مالكية، أو شافعية، أو حنابلة، أو زيديين، أو إمامية^(١)، أو ظاهرية، أو إباضيين، أو غيرهم؛ فإن الاختلاف في الفروع ضرورة طبيعية، ويستحيل استحالة مادية جمع الناس على مذهب واحد، أو رأى واحد، في مسائل ظنية، هي موضع نظر

= وإذ قد عرفت هذه الأسباب خصوصاً، وما ذكره شيخنا - رضى الله عنه - في متن كتابه عمراً، عرفت أن هذا الاختلاف رحمة لا عذاب، ونعمة لا نقمة، وعرفت وجه العذر.

(١) والمراد بالزيدية والإمامية؛ بل وغيرهم من الشيعة: المعتدلون منهم، لا من انحرف في (الأصول العقديّة)، وراجع بحوث (الشيعة) من كتاب مولانا الإمام الرائد «أهل القبلة كلهم موحدون».

واجتهاد إلى يوم القيامة ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

[هود: ١١٨]

وما دام مرجع الجميع كتاب الله وسنة رسوله، وما دام الخلاف على الفرعيات إنما هو في الفهم والتوجيه والترجيح وطلب الحق؛ فلا خصومة قط، وإنما هو التناصح على بساط الحب في الله، والاقتراب بما هو أهدى وأجدى وإيماناً واحتساباً.

وقد اختلف الصحابة والنبى ﷺ معهم والوحى ينزل في صلاة العصر في بنى قريظة^(١)، ومصير أسرى بدر^(٢)، واختلفوا من بعده ﷺ

(١) روى البيهقى في «دلائل النبوة» من حديث عبيد الله بن كعب، وعائشة، وأخرجه الحاكم في «المستدرک» من حديثها، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي: «أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: عزمتم عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر حتى تأتوا بنى قريظة، فغربت الشمس قبل أن يأتوهم، فقالت طائفة من المسلمين: إن رسول الله لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا، وقالت طائفة: والله إنا لفي عزيمة رسول الله ﷺ، وما علينا من إثم؛ فصلت طائفة إيماناً واحتساباً، وتركت طائفة إيماناً واحتساباً، ولم يعنف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين»، وأصل الحديث في الصحيحين وغيرهما.

(٢) عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «لما أسروا الأسارى - يعنى يوم بدر - قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، هم بنوا العمّ والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، =

وكلها فرعيات خلافية، لا تمس أصول الدين، ولهذا احترم كبار أئمة المذاهب آراء بعضهم، بل قلد بعضهم بعضاً أحياء وموتى؛ فصلى الإمام الشافعى عند قبر أبى حنيفة بمذهب أبى حنيفة، أدباً مع روحه الشريف، وقلد أبو يوسف الإمام مالكاً، وقرظ الشافعى الليث

= يقول أحدهم: هذا أحوط، وهذا هو المختار، وهذا أحب إلى، ويقول: ما بلغنا إلا ذلك، وهذا كثير فى المبسوط، وأثار محمد - رحمه الله - ، وكلام الشافعى - رحمه الله - .

ثم قال: وقد كان فى الصحابة والتابعين ومن بعدهم من يقرأ البسمة ومنهم من لا يقرؤها، ومنهم من يجهر بها ومنهم من لا يجهر بها، وكان منهم من يقنت فى الفجر ومنهم من لا يقنت فى الفجر، ومنهم من يتوضأ من الحجاماة والرعاف والقيء، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك... ثم قال: «ومع هذا فكان بعضهم يصلى خلف بعض، مثل ما كان أبو حنيفة أو أصحابه، والشافعى وغيرهم - رضى الله عنهم - يصلون خلف أئمة المدينة من المالكية وغيرهم، وإن كانوا لا يقرءون البسمة، لا سرّاً ولا جهراً، وصلى الرشيد إماماً وقد احتجم، فصلى الإمام أبو يوسف خلفه ولم يعد، وكان أفتاه الإمام مالك بأنه لا وضوء عليه، وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجاماة؛ فقبل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ، هل تصلى خلفه؟ فقال: كيف لا أصلى خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب، وروى أن أبا يوسف ومحمداً كانا يكبران فى العيدين تكبير ابن عباس، لأن هارون الرشيد كان يحب تكبير جده، وصلى الشافعى - رحمه الله - الصبح قريباً من مقبرة أبى حنيفة - رحمه الله - فلم يقنت تأدباً معه، وقال أيضاً: ربما انحدرنا إلى مذهب أهل العراق» ١. هـ .

فى مثل مسائل: (العول والكلالة، وعدة الحامل المتوفى عنها زوجها، وموضوع القبض والسدل فى الصلاة، وسكنى المبتوتة، وزواج المتعة، والطلاق الثلاث بلفظ واحد، وبعض مسائل الموارث، وقراءة المؤتم، ورفع اليد قبل وبعد الركوع، والجهر بالبسمة؛ بل اختلفوا فى صورة حركة الإصبع فى التشهد... إلخ) (١). وهو شىء كثير ويسير، ولكل وجه منه حجة، فهو جائز صحيح.

= فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: لا، والله ما أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليّاً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنى من فلان - نسيباً لعمر - فأضرب عنقه، ومكن فلاناً من فلان قرابته، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها؛ فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر... الحديث» رواه أحمد ومسلم .
(١) يقول العلامة أحمد شاه ولى الله الدهلوى فى كتابه: «حجة الله البالغة»: «إن أكثر صور الاختلاف بين الفقهاء، لا سيما فى المسائل التى ظهر فيها أقوال الصحابة فى الجانبيين، كتكبيرات التشريق، وتكبيرات العيدين، ونكاح المحرم، وتشهد ابن عباس وابن مسعود، والإخفاء بالبسمة وبآمين، والاشفاعة والابتار فى الإقامة، ونحو ذلك، إنما هو ترجيح أحد القولين، وكان السلف لا يختلفون فى أصل المشروعية، وإنما كان خلافهم فى أولى الأمرين، ونظيره اختلاف القراء فى وجوه القراءة، وقد عللوا كثيراً من هذا الباب بأن الصحابة مختلفون وأنهم جميعاً على الهدى، ولذلك لم يزل العلماء يجوزون فتاوى المفتين فى المسائل الاجتهادية، ويسلمون قضاء القضاة، ويعملون فى بعض الأحيان بخلاف مذهبهم، ولا ترى أئمة المذاهب فى هذه المواضع إلا وهم يرضعون القول ويبينون الخلاف، =

ابن سعد، وقرظ أبو حنيفة سفيان الثوري والأوزاعي، ونظم الشافعي شعراً في تقرير الإمام أحمد؛ بل صلى الإمام أحمد بن حنبل خلف بعض أئمة القدرية المغالين وأمثالهم .

وهكذا لا يعرف عن كبار الأئمة من طعن أخاه أو انتقصه، إذ ليس في الدنيا مذهب كله خطأ أو كله صواب.

وهذا إمامنا الشافعي وقد وضع مذهبه القديم بالعراق، في ظروف وأحوال خاصة، فلما جاء إلى مصر وواجه ظروفًا وأحوالًا أخرى وضع مذهبه الجديد، كلاهما من الكتاب والسنة، وكلاهما صواب في موضعه ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

وهذا هو الإمام مالك لم يقبل من المنصور الخليفة العباسي أن يحمل الناس على كتابه (الموطأ) ^(١)، وبين له أن بعض الصحابة

(١) موقف مالك هذا رواه ابن جرير الطبري، وذكره القاضي عياض في «ترتيب المدارك»، وابن فرحون في «الدياج»، والسيوطي، والذهبي، وكل من ترجم لمالك - رحمه الله -، غير أن بعضهم ذكر أن هذا الموقف كان مع أبي جعفر المنصور، وقال بعضهم: إنه حدث مع المهدي، وجعله البعض مع هارون الرشيد، والقصة أصلها صحيح، وهي مشهورة جدًا، والإمام مالك - رحمه الله - قد عاصرهم جميعًا، فهي محتملة الوقوع مع أحدهم، وربما تعددت، وقد أشار إليها شيخنا في غير هذا الموضوع مع هارون الرشيد، لذا لزم هذا التنويه، مع كونها للاستئناس دون التفاصيل والتدليل.

سمع ما لم يسمع الآخر، أو علم ما لم يعلمه غيره فنشر ما علم، وكل منهم على حق، ومن ثمَّ اختلفت الوجوه في المسألة الواحدة، وكلها على الأغلب صحيح.

ونحن مع إمامنا جعفر الصادق في قاعدته العملية: «حسبنا من المسلم ما يكون به مسلمًا»، وسيبقى الخلاف ما دام هناك اختلاف في العقول والتحصيل والفهم والبيئات والوراثات وغيرها ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [مرد: ١١٨، ١١٩].

والإنسان مكلف شرعًا بالعمل بما وصل إليه اجتهاده، واستقر عنده نظره، إن كان من أهل ذلك، وحسبه الدليل الظني عند أهل العلم، ويكون هذا هو حكم الله في حقه وحق من قلده، حتى يتبين له خطأ ما ذهب إليه، ييقن على مثل ضوء الشمس.

وعلى هذا الأساس ننظر إلى مذاهب المسلمين، فنقرب ما بينها، ونربطها جميعًا برباط لا فتنة فيه، ولا تفرقة ولا ضلال - إن شاء الله، وندعو المعتنين والمغرضين والمتفيعين، والمبتلين بضحالة العلم وضيق الأفق والغرور، واللائذين حين تعوزهم الحجة إلى الشتم والسب واللعن الشائن المشين، ندعو لهم ولنا بالهداية إلى الصواب؛ فحال المسلمين لم يعد يحتمل النزاع ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٦- حكم الدين في الفروع الخلفية :

حسبك في الأمور الفرعية الدليل الظني ، إذ أن القاعدة الأصولية تقرر : إن كل ما انسحب عليه حكم الجواز والمنع ؛ فمحلّه الفروع ، والفروع محلها الخطأ والصواب ، فحكمها الحلال والحرام ؛ فنقل هذا الحكم إلى الكفر والإيمان ، والشرك والتوحيد ، تليّس وتديّس ، لا تعرفه الأصول العلمية ، ولا تعرفه أخلاق أهل العلم ، أو طلاب الحقيقة . وإنما هو بضاعة الحمقى والمفلسين من العلم الصحيح .

ثم إن الأمر الواحد ، قد يكون في نظر رجل صواباً بدليله ، وفي نظر آخر خطأ بدليله ، وكلاهما مقيد بحجته^(١) ، والإنسان مختار شرعاً فيما تساوى فيه الدليلان ، وله أن يرجح ما يختار لنفسه ، دون تحكم فيمن سواه ، والمعاملة كلها مع الله .

والمجتهد ملزم شرعاً بالتزام ما صح عنده ، حتى يتبين له ما يغير اعتقاده بيقين ، وليس في مقدمات علوم الإسلام إكراه الناس على ترك ما اقتنعوا به إلى ما لم يقتنعوا به .

(١) قال الشيخ زكريا الأنصاري في «لب الأصول» : «لا ينقض الحكم في الاجتهادات ، فإن خالف نصّاً ، أو إجماعاً ، أو قياساً جلياً ، أو حكم بخلاف اجتهاده ، أو بخلاف نص إمامه ولم يقلد غيره ، أو لم يجز نقض» ا.هـ .

وجمهور الأصوليين على أن كل من اجتهد في الفروع - لا في الأصول - فهو ماجور أصاب أو أخطأ ، ودليلهم حديث الشيخان : «من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد» . واللفظ لمسلم .

وقد وضع أبو حنيفة في هذا الجانب قاعدته الذهبية حين قال ما جملته : «إنني أعتقد أنني على صواب قد يحتمل الخطأ ، وأن غيري على خطأ قد يحتمل الصواب» .

قلنا : وحسب امرئ أن يتحرى الأمر جهده قاصداً وجه الله تعالى ، ثم بعد ذلك هو معذور أمام مخالفه بما ترجح عنده من حجة ، لو أنه خالفه رأى أنه عصى الله .

فلو أننا تعاوننا في المتفق عليه ، وتناصحنا مع العذر فيما اختلفنا فيه ، ولاحظنا أن هذا الاختلاف إنما هو بين مسلم ومسلم ، لا بين مسلم وكافر أو مشرك ، لما تمزق شملنا ، ولا تفرق جمعنا ؛ فالخلاف على الفروع لا يسقط الإيمان ، ولا يخرج من المروءة ، وإنما هو ضرورة أساسية في الفطرة البشرية ، كما أنه نتيجة حتمية لما كان يحمله كل صحابي من علم مستقل ، ينشره ويبرره ، بالإضافة إلى حكم البيئة والوراثة ، وحجم التحصيل العلمي ، وكثافة الذوق والعاطفة ، وطاقة الإدراك .. وغير ذلك .



٧- حول قضية «تقليد الأئمة» :

إن الذي يقلد إماماً ، لا يقلده لذاته ولا لشخصه ، ولكن لتمحض مذهبه في الأخذ من صحيح الكتاب والسنة ، وموافقة ذاك الحال

المقلد، ولأنه لم يبلغ مبلغه في العلم بأصول الدين، وشروط الاجتهاد من التقوى والاحتياط والإحاطة بخصائص اللغة، ووجوه التفسير، ومراتب الحديث، والسابق واللاحق، والناسخ والمنسوخ، ولا لديه الوقت والكفاية العلمية للمقارنة والترجيح، والاستنباط والاستقصاء. . . إلى آخر هذه الأوليات التي يتعين أن يتصف بها المستغنى عن التقليد؛ ليستقى من النبع الذي استقى منه الأئمة.

وعندما تتوفر هذه الشروط وملحقاتها في شخص ما، جاز له ألا يقلد غيره، أما أن يدعى ذلك من هبّ ودب؛ فذلك فساد في الدين، وضلال وقح مبين، والأمة كلها مجمعة - سلفاً وخلفاً - على أنه ليس كل واحد أهلاً للاجتهاد^(١)، لا يخالف عن ذلك عاقل عادل.

وقد أمرنا الله - تعالى - بالتقليد عند العجز عن الاجتهاد، قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

(١) وعلى هذا: باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه، ولكن لمن توفرت فيه شروط المجتهد؛ فأخذ الأحكام الشرعية واستنباطها من مصادرها الشرعية إنما هو من اختصاص العلماء الذين توفرت فيهم أهلية الاجتهاد، لا من مهمات عوام الناس، وكذلك الأمر بالنسبة للفتوى تماماً.

وقال جل شأنه: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠]، إلى آخر هذه الآيات الكريمة في هذا المعنى؛ فإنما هو تقليد في الخير لمن هم أعلم به، فكيف يحرم التقليد في الخير والمسارة إليه ممن لم يقدر على غير ذلك؟!، حتى زعم بعض العوام أنه إمام.

ولا عجب أن تتعدد مسالك الحق والخير، وكلها مقبول، وعليه فقد أجاز النبي ﷺ عمل المجتهدين، ولم يخطئ أحدهما، كواقعة الصلاة في قريظة، وقد اقتدى بعض الصحابة ببعض فيما أمضوه من الأقضية، مع المعروف من تعدد أقوالهم في المسألة الواحدة، وكثيراً ما كان عمر - رضى الله عنه - يأخذ بفتوى على - كرم الله وجهه - ويقول: «قضية، ولا لها إلا أبا الحسن».

وهذا الإمام أبو يوسف صاحب أبي حنيفة، وقاضى القضاة، وصاحب الجمعة، وإمام الخلافة، لم يستنكف أن يقلد مالكاً، يوم علم أنه (أى: أبو يوسف) توضاً من بئر كان فيها (جرذان) ميتة، وكان قد صلى الجمعة وانصرف الناس، وهذا الماء في رأيه نجس، وقال: إذن نأخذ بقول إخواننا الحجازيين «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً»، وأمضى الصلاة على هذا المذهب، وهو كما قدمنا صاحب مذهب آخر.

ومشهور (كما قدمنا) أن الشافعي صلى عند قبر أبي حنيفة الصبح فلم يقنت فيه مقلداً صاحب القبر - عليهما معاً رضوان الله .

ومثل ذلك كثير من أئمة الهدى ؛ أفيكون هؤلاء الأميون الحمقى أفقه في دين الله من الله ورسوله، ومن الصحابة ومن بعدهم؛ فيمنعون التقليد عن من لم تتوفر فيه شروط الاجتهاد، علماً بأن أكثر الأمة أميون الآن، وليس كل قارئ كاتب يصبح إماماً .

إنهم في هذا القول يقلدون غيرهم، ممن قال به من سلفهم المتهور المجازف ؛ فلماذا أجازوا تقليد سلفهم، وحرموا تقليد من أجمعت الأمة على تقليدهم !؟

اللهم إنها فتنتك، تضل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء .



٨- الخلافات المذهبية والوحدة :

ما دامت هناك هوة خلافة بين بعض الفرق الإسلامية، (ذات الأصول الواحدة)؛ فليس من اليسير محاولة الانتفاع بها في هذه الرسالة الخطيرة - رسالة الإسلام والحضارة - انتفاعاً ذاتياً أصيلاً، يحقق الهدف أو يقرب منه، بعيداً عن التنافس غير المشروع، ومسوخ صورة الواجب، وتحويله إلى نوع من التجارة أو الدعاية للمذهب المخصوص .

إن الخلاف المذهبي حقيقة قائمة بين السلفية والصوفية^(١) ، وليس يغنى في إخفاء هذه الحقيقة دعوى أو تجهيل ، وهذا الخلاف يستهلك كل الوقت ، وكل الجهد ، وكل الطاقة، وما لم يوضع حد لتخفيف حدة هذا الخلاف ، فإنه لا يرجى أبداً أن تتحقق وحدة الشعب الإسلامي على الصورة المؤملة ، وهذه الوحدة هي أساس كل المطلوب (للحياة الإسلامية الصحيحة) ولإنقاذ هذه الأمة !! .

وكيف يمكن تحقيق الوحدة بين (أهل القبلة) ، ونحن لم نترفع بعد عن السب والشتم، والسفاسف والاتهام، وعدم الإحساس بفحش خطيئة المجازفة برمي المسلم بالشرك والكفر والفسوق والتبذع، فيما يتنازعه قولان أو يتعاوره دليلان، الأمر الذي يستنزف الجهد ، ويلهب في كيان الأمة حريق الاستهلاك الذاتي المدمر في وقت تتجمع فيه حولها كل عوامل الهلاك، وخصوصاً من الخارج، كما هو معروف، وكما هو واقع بالفعل، وحسبك قضية فلسطين .

(١) كما أن الخلاف المذهبي قائم بين السلفية والأشاعرة على أشده، مع أن الأشاعرة هم حماة السنة، فهو كذلك قائم بين السلفية ونفسها ، فقد صارت السلفية شيعاً وطوائف شتى ، وإذا كان هذا المصطلح يدل - لأول وهلة - على متبعي السلف الصالح؛ فإنه أصبح الآن - حقيقة - علامة على التشدد والتعصب والتكفير والتشريك ، وما يسمى بالأصولية ظلماً .

إن من صميم السنة أن تسمى الأشياء بأسمائها، فالمخطيء والجاهل والمتأول، لا يجوز أبداً أن يسمى كافراً أو مشركاً أو مبتدعاً، ولكل منهم علاجه الذي لا يخرج من دين الله، إن صح ما نسب إليه، وإلا فهذا أخبث هدم لجدار الإسلام وجدار الوحدة التي باركها الله فقال: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢] .

إن الخلاف على الفرعيات طبيعة وشريعة، ومهما حاول المحاولون فلن يستطيعوا قط أن يجمعوا الناس على قول واحد، فيما فيه خلاف علمي مقرر، وإن مثل هذا الخلاف إنما هو من أثر الاجتهاد في طلب الصواب، فهو صواب في ذاته، حتى لو سلمنا بخطئه؛ فإن رسول الله ﷺ أقر الخلاف الاجتهادي الفرعي، وهو حي، والوحي ينزل، فقبول الخلاف الاجتهادي فيما فيه الوجهان شريعة. كما أنه طبيعة حتمية، لاختلاف الثقافات، والمفاهيم، والمضامب، ورتب الآثار، وبلوغ الأخبار، وتحكم القابليات، والاسعدادات، واختلاف الأحكام، والبيئات والمطالب، والقضايا، والحوادث، والظروف، والمقتضيات، والغافل عن تفاعل كل ذلك وعمق أثره بعيد عن الصواب على أحسن الفروض؛ فالدين يسر، والإسلام سمح، والفقه فضل وعمق، وإدراك وسعة أفق، لا تحكم ولا احتكار أو احتقار للناس، ولا اتهام لعلمهم وإيمانهم، ولقد جاء أئمة الفقه الأوائل، كأبي حنيفة، ومالك، والأوزاعي، والليث،

وزيد، وسفيان، وجعفر، وغيرهم، فأخذ كل منهم عن من كان بوطنه من التابعين، ثم اجتهد ما وسعه فيما لم يكن عند هذا التابعي أو غيره، ومن هنا كان الخلاف الفرعي، كأثر طبيعي لا بد منه لوضع القضية كلها، وكانت سماحة الفهم سبباً في أن كبار الأئمة كان يقلد بعضهم بعضاً في بعض المسائل، كما هو ثابت في التاريخ الديني، (وقد قدمنا بعضه).

ولعل من خير ما ينقل في ذلك قول ابن حزم يصف تلقي العلم في مجالس الرسول ﷺ: «حضر المدني ما لم يحضر المصري، وحضر المصري ما لم يحضر الشامي، وحضر الشامي ما لم يحضر البصري، وحضر البصري ما لم يحضر الكوفي، وحضر الكوفي ما لم يحضر البصري، كل هذا موجود في الآثار. وفي ضرورة العلم بما قدمنا، من تغيب بعضهم عن مجلس النبي ﷺ في بعض الأوقات وحضور غيره، ثم مغيب الذي حضر أمس، وحضور الذي غاب، فيدرى كل واحد منهما ما حضر، ويفوته ما غاب عنه، هذا معلوم بيديهة العقل... وقد كان علم التيمم عند عمّار وغيره، وجهله عمر وابن مسعود فقالا: لا يتيمم الجنب، ولو لم يجد الماء شهرين، وكان حكم المسح عند عليّ وخديجة رضى الله عنهما، وجهلته عائشة وابن عمر وأبو هريرة وهم مدنيون، وكان توريث بنت الابن مع

البت عند ابن مسعود وجهله أبو موسى ، وكان حكم الاستئذان عند
أبي موسى وعند أبي سعيد وأبي وجهله عمر^(١) . ا. هـ .

ولو أدرك ذلك إخواننا هنا وهناك لخدمت نار العصبية المذهبية ،
ومارس كل واحد مقتضى معتقده دون الوقوع فى ديانة الآخرين
وعلمهم ؛ فالتأم الشمل بحمد الله ، وكان التعايش السلمى المذهبي
أول أبواب الوحدة والقوة ، واستعادة مجد الإسلام .



(١) الإحكام فى أصول الأحكام ، لابن حزم [٢ : ١٢٦ ، ٢٣٩] ولثلاثة نذكر

أن أسباب الخلاف عند ابن حزم عشرة ، ملخصها :

- ١- عدم إمام الفقيه بالخير .
 - ٢- أن يظن وهم الراوى فى روايته .
 - ٣- أن يظن نسخ الخبر .
 - ٤- تغليب نص على آخر بدافع الحيطة .
 - ٥- تغليب نص على آخر لكثرة العاملين به .
 - ٦- تخصيص عموم بالظن .
 - ٧- أن يغلب نصًا لا يصح غير عالم بذلك .
 - ٨- الأخذ بعموم ظاهر وترك ما يخصه .
 - ٩- أن يتأول الخبر على غير ظاهره لعله ظنها بغير برهان .
 - ١٠- ترك الخبر لقول صحابى .
- وانظر الإحكام [٢ : ١٢٨ ، ١٢٩] .

٩- رغائب وسطحيات :

وأكثر ما يكون الوقوع فى الخلاف - فيما أتيج لنا - إنما هو حول
قشريات سطحية هامشية من الفضائل ، أو بسائط المظهرات والسنن
العادية ، التى لا تستوجب التأثيم ولا التجريم . . وإنما هى رغائب
ونوافل عادية أو تعبدية ، من فعلها كان له الأجر ، ومن اعتذر عنها
لم يصبأ أو يرتد ، فوضعها فى مستوى الفرائض والواجبات تغيير فى
الأوضاع الدينية ، وتحكم فيما لا يملك أحد أن يتحكم فيه ، وهذا
ليس من العلم ، ولا من البر ، ولا من آداب الإسلام ، وإنما هو
تفتيت للأمة العربية والإسلامية بعد تفتيت ، وهو ما عابه الإمام
البخارى على من اتبعوا نهج الخوارج ، فعمدوا إلى الآيات التى
نزلت فى الكفار ، وجعلوا يطبقونها على المسلمين ، دون احتياط ،
ولا رعاية للفوارق التى لا تخصى ، كما هو شأن المتسلفة هذه الأيام .
ونحن لو جارينا القائلين بتأثيم تاركى الرغائب والمظهرات ؛ فهو
إثم خفيف لا يعدو أن يكون ضربًا من اللطم ، فتضخيمه والنفخ فيه
حتى يكون كبيرة موبقة نوع من الفتنة التى يجب أن يترفع عنها عقلاء
المسلمين ؛ ليتفرغوا لمواجهة ما هو أنكر وأخطر من المقروءات
والمسموعات والمنظورات المدمرة ، والتى لا يقبل عذر من عدم
مكافحتها أمام الله ، ولا أمام عباده ، وثمة ملاحظة جديرة بكل
تقدير ، وهى وجوب العلم بأنه ليس كل شىء لم يكن على عهد

رسول الله ﷺ هو بدعة أو حرام أو شرك أو كفر، ولا كل شيء لم يرد عنه ﷺ هو بدعة أو حرام أو شرك أو كفر، ولا بد عند اطلاق التبديع أو التحريم أو التكفير، من الفقه المؤصل المؤهل لذلك.

إن الإسلام فى حاجة إلى توحيد الجهود، وترتيب الصفوف، والتسامى إلى مستوى المسئوليات والأحداث، وبخاصة فى هذه الأيام البالغة الخطورة من كل الجوانب.

وإن الإسلام قد حفظ حقوق الناس فى حرية التفكير والتدين والتمذهب، على ألا يفتت هذا وحدة الأمة، أو ينشر الفتنة، أو يفرق بين الوالد وولده، أو يوزع القرية أو المدينة إلى شيع تتقاتل من أجل شبه وهامشيات ومظاهر سطحية، لا تخرج فاعلها ولا تاركها من صفوف الصالحين، فضلاً عن صفوف أهل القبلة. كما هو حادث الآن خصوصاً فى قرى مصر، التى أصيبت بداء التسلف المخرب.

لحساب من هذا الاضطراب والتشكيك، وصرف الناس عن كبريات المسائل الحيوية، فبنشأ المسجد ليحارب المسجد، ويؤتى بالدارس والخطيب ليقارع الدارس والخطيب، ويستحل فى هذا المسجد ما يحرم هناك، ويحرم فى هذا المسجد ما يستحل هناك، والشئ الواحد يكون حلالاً هنا حراماً هناك، ويسمع الناس هنا ما لا يسمعون هناك، ويرون هناك ما لم يروونه هنا؛ فتهتز عقائدهم وقلوبهم، ثم تتفرق شيعاً عائلاتهم وأفرادهم، ثم ينصرفون، لا إلى

دين، ولا إلى مجتمع، ولا إلى وطن؟؟ ولكن إلى تخريب الإسلام وتدمير المسلمين، وصرفهم عن معالجة الكباثر، إلى التوافه والصغائر.



١٠- أصل فكرة المسلم المشرك والولاء المذهبي:

إن فكرة (المسلم المشرك) التى يتغنى بها البعض، ويلحف على نشرها باسم التجديد والتوحيد^(١)، فكرة استحدثت لاستحلال دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، فى سبيل تأسيس ملك وتشكيل دولة، لا يشك فى ذلك باحث منصف أو مؤرخ عليم بالمساتير.

فمسألة الموحدين وغير الموحدين من أهل (لا إله إلا الله) مسألة أجنبية يهودية مستوردة، استطاعت - بوسيلة أو بأخرى - أن تشتري ولاء بعض الناس بعلم أو جهل أو حسن ظن، تأسيساً لتخطيط بعيد الأوغار، قاتم الأعماق، من أخطر تخطيطات السياسة.

وأولياء هذه الفكرة وسدنتها هم اليوم كما كانوا بالأمس، أبواب الاستعمار والعلمانية والإلحادية والانحلال العقدى والخلقى إلى

(١) ومن أهم وأعجب ما ابتدعه - على غير هدى - لترويج تلك الفكرة: «تقسيمهم التوحيد إلى الوهية، وربوبية، وأسماء وصفات» وبذلك فتحوا الطريق لفكرة (المسلم المشرك)، المسلم الموحد توحيد الوهية دون توحيد ربوبية أو العكس، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وهى حيل كلامية لا يعرفها الإسلام منذ أزهى عصوره، فهى بدعة سوء وتخريب ودمار.

الوطن العربى ، بالإضافة إلى ما يجده التبشير والتنصير والاستشراق فى دعوتهم من ثغرات للهجوم على الإسلام ونبى الإسلام !! .

ويجب أن يكون معروفًا أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] ، إنما يراد به المنافقون ، الذين يظهرون الإيمان ويضمرون الكفران ، وصرف الآية عن هذه الحقيقة البديهية إلى المسلمين تعسف وتحكم ، ليس من باب العلم البرىء ، إنما هو التخريب الرهيب والعصبية ، ولؤم السياسة .

وإن الرجل الذى يعطى ولاءه لمذهب ما ، إنما باع نفسه لسادة هذا المذهب ، حيثما كانوا ، وأينما كانوا ، سواء شاء أو لم يشأ ، علم أو لم يعلم ، والتعامل بالولاء (لغير الحق) لا يفضى إلى أقل من الخيانة!! ، وإن ما وراء هذا لكثير وكبير وخطير ، (فستذكرون ما أقول لكم)!! .

وهذا الذى يحملنا بعنف إلى الإلحاح فى سبيل اتخاذ (كل سبيل) للتوفيق بدلا من التفريق . . وللتقريب بدلا من التشعيب . . وللتحبيب بدلا من التشغيب .

وقد كررنا أن أمامنا اليوم وغداً من خطر الأحداث ما يحرم معه شرعاً وعقلاً وحتماً الانشغال بغيره ، مما لم يتفق فيه على رأى معين ، وحسبنا التلاقى فى الله الآن ، على ما يصير به المسلم مسلماً ، كما

يقول جعفر الصادق - رضى الله عنه ، ثم نمضى به إلى الأفضل والاكمل بالمحبة والحكمة والتكريم والتوفيق بالأمانة والصدق .



١١- التفرق المنهى عنه :

أورد الجصاص فى (أحكام القرآن) ، والقرطبى فى (الأحكام) جماع ما قرره علماؤنا فى ذلك ، من أن المقصود من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، هو التفرق عن دين الله ، الذى أمروا جميعاً بلزومه والاجتماع عليه ، أى : فى أصول الدين المقررة بالإجماع ، قال : وليس فى الآية دليل على الاختلاف فى الفروع ؛ فإن ذلك ليس اختلافاً ، إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع ، أما حكم مسائل الاجتهاد ، فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ، ودقائق معانى الشرع ، وما زال الصحابة يختلفون فى أحكام الحوادث ، وهم مع ذلك متآلفون .

ويقول ابن العربى (المالكي) : التفرق المنهى عنه هو التفرق فى العقائد ، وأما فى الفروع فليمض كل أحد على اجتهاده ؛ فإن الكل بحبل الله معتمصم ، وبدليله عامل (وهنا استدل بقصة صلاة العصر فى بنى قريظة ، وكيف أقر النبى ﷺ من تعجل الصلاة ومن أخرها على اجتهاده) .

ثم قال: والحكمة في ذلك أن الاختلاف والتفرق المنهى عنه، إنما هو المؤدى إلى الفتنة والتعصب وتشتيت الجماعة (أى كتعصب أولئك الذين يظنون أنهم وحدهم على السنة والتوحيد، وكل من خالفهم خاطيء مشرك صابيء، لا يدخل الجنة ولا يجد ريحها!!).

ثم قال: فأما الاختلاف فى الفروع؛ فهو من محاسن الشريعة، وقد حكم الله بصحة إجماع الصحابة - رضى الله عنهم - فى مواضع كثيرة من كتابه العزيز... إلخ (ما قاله).

وقد جاء نحو هذا فيما لا يحصى من تراثنا القديم، ويتحصل منها جميعاً قول واحد، هو أن التفرق المنهى عنه، إنما هو ما كان فى أصول الدين، وأما الفروع فالأصل فى أحكامها الاجتهاد، ولا يسمى الاجتهاد اختلافاً ولا تفرقاً؛ لأنه دائر مع دليله فى فلك الأصول لا يتعداها، فهو فى الواقع تيسير ورفق ورحمة، وهكذا يكون اختلاف الأحكام أشبه بالابحاض الجزئية من الشيء الواحد، الذى يختار منها كل إنسان ما يناسبه، وهو محدود بقوانين الشرع الكلية، ملتزم لا يتعدى المعروف من الدين بالضرورة.. فيا ليت قومى يعلمون (بعد كل هذا الشرح والتكرار).

١٢- هل تتعدد سبيل الحق ؟ :

[ويعترض بعضهم علينا بأن تعدد الطرق الصوفية الشرعية والهيئات الإسلامية المشروعة، والمذاهب الإسلامية الصحيحة، إنما هو اختلاف يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الانعام: ١٥٣] ويدخل تحت حديث: «خط رسول الله ﷺ خطأ، وخط عن إيمانه وشمائله خطوطاً، وقال ﷺ: «هذا سبيل الله، وهذه سبل على كل منها شيطان يدعو إليها، ثم قرأ الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا...﴾»، ونحن إنما نضع أمورنا كلها فوق ميزان الفقه والشرع الشريف؛ وبالبحث تحيا الحقائق، ويموت ما سواها من جهالة وعصية، ولذلك نجيب على الاعتراض السابق فنقول بغاية الاختصار:]

إن الاختلاف بين الطرق الصوفية الشرعية، والهيئات الإسلامية المشروعة، والمذاهب الإسلامية الصحيحة ليس اختلافاً فى الحقيقة والهدف، وإنما الاختلاف هو فى الوسيلة والأساليب والمنهج ليس إلا.

فالطرق الصوفية الشرعية - على تعددها - سبل تعددت إلى الله ، لتلائم حاجات كل سالك إليه؛ فيجد فيها كل مرید ما يناسب طاقته، ووقته، ومزاجه، وبيئته، قطعاً لأعدار القاعدين عن الهجرة إلى الله عز وجل؛ فليس كل الناس سواء فى الطاقة والمزاج.

وإذن: فتأمل بإمعان قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، إذن: فهناك سبل شتى توصل إليه - تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]، وهذه السبل المتعددة القويمة تَمْضَى متوازية متحاذاة في اتجاه واحد؛ فكأنها طريق واحد، ولذلك جاءت في أكثر من آية بلفظ المفرد، نحو: «سبيلي، أو سبيله، أو سبيل ربك» لاتحاد البداية والنهاية؛ فهي مجتمعة (صراط الله المستقيم الواحد الممتبِع)، أى: أقرب مسافة بين العبد وربّه.

وذلك أن الطرق الشرعية جميعاً تبدأ من التوبة، وتنتهى بالمعرفة، فإذا فرضنا (دائرة ذات مركز)، كانت كل الطرق الشرعية خطوطاً داخلية، تصل ما بين محيط الدائرة ونقطة المركز، وكيفما كان اتجاه نقطة البداية، فلا خلاف في النهاية، ولا في الأصول العامة، ولكن في فروع كيفية الوصول!! (ونحو هذا قل في جميع الفرق الإسلامية الشرعية)، كالجمعيات والاتحادات وغيرها.

وبهذا يندفع اعتراض الباحثين عن المشكلات والأغاليط، المفرقين بين الجماعات، والمحتجين بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فالمنهى عنه سبل الشيطان والكفران، التى تتقاطع وتتعارض مع سبل

الرحمن، وأما سبل الرحمن فالله ذكرها كما فصلنا، ووعد المجاهدين فيه بهدایتهم إليها، قال تعالى: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وسماها تعالى: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾، واعتز بها الأنبياء فقالوا: ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، فكلها متوازية متحاذاة، وكلها شرائح يتكون منها (سبيله) تعالى؛ فهى - وإن تعددت - سبيل واحدة للاتحاد فى البداية والنهاية، والنية والهدف الأعظم.

إن الحق واحد لا يتعدد، ولكن السبل تتعدد فى إدراكه، أو الوصول إليه، فلو تصورنا مصباحاً معلقاً، فقد تصورنا أن النظر إليه، وإدراك وجوده، ممكن من الجهات الست وما بينها، وهكذا تعددت سبل رؤية المصباح، وهو واحد مستقر فى مكانه غير مكرر، وهذا هو شأن الناظرين إلى الشمس والقمر فى كافة أقطار الدنيا، يختلف موقع الطالب ويتعدد، ولا يختلف المطلوب المحدد.

وفى ذهابك إلى الكعبة مثلاً، تستطيع الوصول بالطائرة، والباخرة، أو السيارة، وركوب الدواب، والمشى على الأقدام، وكلها سبل توصل إلى الحقيقة الواحدة التى لا تتعدد.

وفى موقف المسلمين حول الكعبة فى الصلاة، تختلف الاتجاهات اختلافاً تاماً، ولكنها جميعاً تلتقى فى نقطة المركز الواحد، الذى ترمز إليه بناية الكعبة الشريفة الموحدة!!.

ألا ترى إلى الشارع الواحد، أو الطريق الواحد، وقد قسم إلى (حارات، أو مسارات) تتعاون في الخدمة، ولا تختلف؟! (ولله المثل الأعلى).

ألا ترى إلى (كابل) الكهرباء أو التليفون، وقد جمع الآلاف من الأسلاك والحبال، متناسقة جميعاً في (أنبوب) أو (ماسورة) واحدة، كذلك شأن سبيل الله، وتعدد الطرق إليه.

أما ما عسى أن يصيب هذه (الطرق أو الجماعات أو الفرق أو الهيئات) من أمراض المبتدعات والناكر والمحرمات؛ فأمر طارئ دخیل أو مدسوس، لا يغير من نقاء (الخامة) الأصلية، وحكمها الشرعى معروف. (وهو خارج عن دائرة هذا البحث).



١٣- حديث : اختلاف أمتى رحمة :

قال فى المقاصد : هذا الحديث رواه البيهقى فى المدخل بسند منقطع عن ابن عباس بلفظ منه : «إن أصحابى بمنزلة النجوم فى السماء، فأبها أخذتم به اهتديتم، واختلاف أصحابى لكم رحمة»^(١).

(١) ورواه الخطيب فى الكفاية (٤٨)، وابن عساكر [٧/٣١٥/٢]، كلهم من طريق سليمان بن أبى كريمة عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً. قال العراقى: وإسناده ضعيف. وأورده السجزي فى «الإبانة» وقال: غريب. وانظر: المقاصد (٢٦)، التمييز (٩)، الكشف [١: ٦٤]، الأسرار (١٧، ٦٠٤)، وتذكرة الموضوعات (٩٠)، وتدريب الراوى (٣٧٠)، وفيض القدير [١: ٢٠٩ - ٢١٢].

وفى صلاة الوتر مثلاً تستطيع أن تصلى ركعة واحدة، أو ثلاثاً، أو خمساً أو أكثر.. وكلها سبل موصلة صحيحة ثابتة؛ فالصلاة واحدة، ووسائل الأداء متعددة إلى الغاية الواحدة المتوحدة.

أما ما أشار إليه حديث: «خط رسول الله ﷺ خطأً، بيده، ثم قال ﷺ: هذا سبيل الله مستقيماً، وخط عن أيمانه وشمائله خطوطاً، وقال ﷺ: هذه السبل، وليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعوا إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا...﴾ الآية^(١)»، فإن فهم هذا الحديث محكوم بفهم كل ما يتعلق به مما قد فصلناه وبيناه هنا، فلا تعارض بين القرآن والقرآن، ولا بين السنة والقرآن، ولا بين السنة والسنة.

إن رسول الله ﷺ خط الخط المستقيم، وخط عن يمينه وشماله خطوطاً (متعارضة، أو متقاطعة) معه؛ فلا هى محاذية له، ولا متوازية معه، بل هى مخالفة عنه، والفرق هائل جدّاً بين هذا وبين سبل الله المتوازية المتحاذية المتوحدة البداية والنهاية، فلا تقاطع فيها ولا تعارض.

(١) رواه أحمد [١: ٤٣٥، ٤٦٥] عن عبد الله بن عمر، و[٣: ٣٩٨] عن جابر، ورواه عنه أيضاً ابن ماجه [١: ٦ رقم ١١]، والدارمى [١: ٦٧]، والحاكم فى المستدرک [٢: ٣١٨] عن عبد الله بن عمر، وابن حبان [١٧٤ موارد] عن ابن مسعود.

وأخرجه أبو نعيم بلفظ: «كان اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ رحمة للناس»، وذكر ابن سعد نحوه في (الطبقات) عن القاسم ابن محمد^(١) (موقوفاً عليه فيهما).

وبهذا نكون قد عرفنا أن هذا الحديث (له أصل) على الأقل؛ فلا اعتراض عليه، وقد وهم من ادعى أنه لا أصل له، فأصله ثابت عند من ذكرنا آنفاً من أهل هذا الفن. ثم هو فعلاً وعقلاً رحمة لا مرء فيها، ثم هو مما يؤخذ به في فضائل الأعمال قطعاً.



١٤- طعن بعضهم على هذا الحديث :

ذكر الخطابي في (غريب الحديث) أنه سبق أن اعترض هذا الحديث رجلان: أحدهما ماجن!! هو إسحاق الموصلي، والثاني ملحد!! هو عمرو بن بحرو!! وقالوا: لو كان الاختلاف رحمة، لكان الاتفاق عذاباً!!، وهو عين ما يقول به متمسلفة هذا العصر.

قال النووي في (شرح مسلم): ولا يلزم من كون الشيء رحمة أن يكون ضده عذاباً... قال: ولا يلتزم هذا، ولا يذكره إلا جاهل

(١) وأثر القاسم بن محمد هذا رواه أيضاً البيهقي في المدخل من قوله، وفي الباب عدة آثار عن عمر بن عبد العزيز، ويحيى بن سعيد، والإمام مالك، وغيرهم، وهو مخرج في المعنى على ما سيذكره شيخنا بعد.

ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني والديلمي بلفظه (وفيه ضعيف)، وعزاه الزركشي وابن حجر في «اللائي» لنصر المقدسي في «الحجة» مرفوعاً من غير كلام عن سنده.

وعزاه العراقي لآدم بن أبي إياس في كتاب العلم والحلم بغير بيان لسنده أيضاً، بلفظ: «اختلاف أصحابي رحمة لأمي» (وهو مرسل ضعيف).

وبهذا اللفظ أيضاً ذكره البيهقي في (رسالة الأشعرية) بغير إسناد. ثم قال في المقاصد: قرأت بخط شيخنا (يعني الحافظ ابن حجر) أنه حديث مشهور على الألسنة.

وقد أورده ابن الحاجب في (المختصر) بلفظ: «اختلاف أمي رحمة للناس»، وكذلك أورده الخليمي، والقاضي حسين، وإمام الحرمين^(١)، وغيرهم.

وفي مسند الفردوس عن ابن عباس مرفوعاً: «اختلاف أصحابي لكم رحمة».

(١) ذكره السيوطي - رحمه الله تعالى - وقال عقبه: «ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا» كذا في الجامع الصغير، وسكت عنه. وتعقبه كثيرون منهم أبو الفيض أحمد بن الصديق في «المغبر على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير».

متجاهل، وقد قال تعالى: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ فسمى الليل رحمة، ولا يلزم من ذلك أن يكون النهار عذاباً!!.

نقول: ومن المؤسف أن نلتزم بحكم المنطق والاستطراد أن نقول: إن الطاعن في هذا الحديث، بعد هذا يقحم نفسه للحاق بماجن أو ملحد عند الخطابي، أو بجاهل أو متجاهل عند النووي، وهما جانبان أحلاهما مر، ولا نرضاهما لأخ في الله!!.



١٥- معنى: اختلاف الأمة هنا :

ولكن كيف نفهم معناه؟! وقد أورد بعضهم الاعتراض بآيات عدم الفرقة في الدين، وزعموا أن الحديث يخالفها (عقلاً)، ومن ثم أنكروا الحديث!؟.

والإجابة هنا من وجوه، نلخصها فيما يأتي:

أولاً: المراد بالدين في الآيات أصوله، وهذه لا اختلاف فيها على الإطلاق بين كافة طوائف المسلمين.

ثانياً: إن الاختلاف في الفروع طبيعة مطبوعة، وفطرة مشروعة، وقد اختلف الصحابة ورسول الله ﷺ حياً، والوحي ينتزل، والدين مشرق نضر، وهو اختلاف يدور في فلك الأصول؛ فكل وجه من وجوه أصل من جانب، فرع من جانب آخر.

فمثلاً: رسول الله ﷺ قام بالوتر ركعة واحدة؛ وثلاث ركعات، وخمساً. . إلخ، واختار كل إمام من ذلك ما ناسب ظروف بيئته، وما استوجبه مرجحات الحكم عنده؛ فاختلّفوا في الاختيار، ولكنهم متفقون على المأخذ، متحدون في المشرب.

وكذلك مثلاً: جهر رسول الله ﷺ بالبسملة مرة، وأسرّ بها مرة، فأخذ بهذا قوم، وأخذ بهذا آخرون، وقل مثل هذا في عدد تسيّحات الركوع والسجود، وفي التأمين والتسليم، والقبض والسدل، والقراءة خلف الإمام، ورفع اليدين قبل وبعد الركوع، ونحو ذلك.

فالاختلاف هنا اختلاف في اختيار ما يراه كل فريق أنه أوفق أو أوثق؛ فليس هو اختلاف في الدين، وإنما هو اجتهاد في الاختيار المحدود بحدود الوارد في الدين؛ فإطلاق اسم الاختلاف عليه إنما هو بحسب ظاهر الأمر ليس إلا، وإلا كان ابتكاراً أو ابتداءً تبرأ منه الأمة والأئمة.

بقي الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص^(١)، وهذا النوع محكوم بقواعد تحصره بدءاً ونهاية، في الأصول المسلم بها عند أهل الذكر، واختلاف نتيجة الاجتهاد هنا، لا تخرج بها عن دائرة الإسلام لاتحاد

(١) راجع رسالة (حسن التفهم والدرك لمسألة الترك) للشيخ عبد الله الصديق الغماري، ففيها تفصيل أحكام ما ترك رسول الله ﷺ من بعض الأحكام، وفيها ملاحظ ومستدركات هامة.

الماخذ والمنبع، والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٥٨٣]، فليس من ذلك ما يعتبر فرقة في دين الله، وإنما هو البحث عن الحقيقة التي أذن بها الله لاهلها، كما استنبط الرسول ﷺ مثلاً صحة صيام الأكل الناسي من قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].



١٦- مشروعية العمل بأحد الوجهين :

إذا نظرت إلى كل أحكام الفروع الخلافية، لوجدتها (كما يقول الإمام الشعراني في : كشف الغمة) تدور بين الرخص والعزائم^(١)، والرخصة والعزيمة مرتبتان على الترتيب الوجوبي، لا على التخيير، فلا يلجأ إلى الرخصة من له قدرة على العزيمة، أخذاً بالأحوط، إلا ما ثبت فيه تخيير من الشارع الحكيم، أو فعله لهما جميعاً على السواء من غير نسخ، هذا حاصل ما ذكره الشعراني - رحمه الله - في (الميزان الحضري) و(الميزان الكبرى)، وقد قال في (الميزان الحضري) بعد تقريره ذلك: «ثم لا يخفى عليك - يا أخى - أننا ما سمينا مرتبة التخفيف في هذه الميزان رخصة إلا بالنظر لمقابلها من التشديد لا غير، وإلا فالعاجز لا يكلف بما هو فوق طاقته، وإذا لم يكلف بما فوق طاقته؛ فالرخصة حينئذ في حقه كالعزيمة، لا يجوز له النزول عنها إلى مرتبة ترك ذلك الأمر بالكلية؛ فليس مرادنا هنا بالرخصة ما هو متعارف بين الأصوليين». =

وهما حلقة من دين الله يكمل بعضها بعضاً؛ فلا يعتبر ترجيح طرف منهما على الآخر تفرق في الدين، إنما هي حيوية الدين، وصلاحية الدين ومرونته، وسر خلوده وإعجازه، وتجاوبه مع ظروف الناس.

وقد نقل صاحب (المدخل) عن عمر بن عبد العزيز قوله: «ما سرنى لو أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا؛ لأنهم لو لم يختلفوا = ثم نقل الشعراني - رحمه الله - عن الزركشى في كتاب «القواعد» له قوله: «اعلم - يا أخى - أن الأخذ بالرخص والعزائم في محل كل منهما مطلوب راجح؛ فإذا قصد المكلف بارتكاب الرخصة قبول فضل الله تعالى عليه كان أفضل، وفي الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»، فإذا ثبت هذا الأصل عندك، فاعلم أن مطلوب الشرع الوفاق، ورد الخلاف إليه، ولهذا كان عمل الأئمة على المجمع عليه ما أمكن؛ فهو من باب العزائم، كما أن العمل المختلف فيه من باب الرخصة»، إلخ كلام الزركشى رحمه الله.

وفي كلام الشافعى - رضى الله عنه - : «إذا ضاق الأمر اتسع»، ومفهوم القاعدة: إذا اتسع الأمر ضاق.

ثم قال الشعراني: «وكان سفيان - رحمه الله - وغيره، يكرهون قول الناس: قد اختلف العلماء، ويقولون: قولوا بدل ذلك: توسع العلماء». وكان الإمام الشافعى - رضى الله عنه - يقول: «إعمال الحديثين، أو القولين أولى من إلغاء أحدهما» انتهى ما أردنا نقله من كلام الشعراني رحمه الله.

والحاصل: إن أحكام الشريعة الإسلامية المتوسع فيها تدور بين الرخصة والعزيمة، وكل بحسب حاله مثاب إن شاء الله، وكلا الوجهين مشروع العمل به بشروطه، والله أعلم.

لم تكن رخصة»، أى: لم تتحقق سماحة الدين، وفى الحديث: «ليعلم اليهود والنصارى أن فى ديننا فسحة، وأنتى بعثت بالمللة السمحة»^(١).

ومن هنا لم يقبل مالك - رضى الله عنه - أن يحمل الرشيد الناس على التزام (الموطأ) - كما قدمنا - فإن أصحاب الرسول ﷺ تفرقوا فى البلدان، وعند كل منهم علم، وكل مصيب.

وفى «أعلام الموقعين» لابن القيم، فصل فى «تغير الفتوى»، واختلافها بحسب الأزمنة، والامكنة، والأحوال، والعوائد، وقد مثل الشيخ لذلك، ثم استشهد بكتاب الليث بن سعد إلى مالك، وبكلام الشافعى فى «مقاصد الناطقين»^(٢).. إلخ.

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما، واللفظ هنا للحميدى وأحمد.

(٢) وتغير الفتوى واختلافها بتبدل المصالح والأحوال، ليس اختلافاً فى الحقيقة؛ بل هو نوع من مرونة الشريعة ومناسبتها لجميع الأحوال والأزمنة، فهو (العالية المطلقة) و(الشمول الكلى) للشريعة الإسلامية.

وقد قال الشاطبى فى الموافقات (٢: ٢٨٥): «إن اختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد ليس فى الحقيقة باختلاف فى أصل الخطاب؛ لأن الشرع موضوع على أنه دائم أبدي لو فرض بقاء الدنيا من غير نهاية، والتكليف كذلك لم يحتج فى الشرع إلى مزيد، وإنما معنى الاختلاف أن العوائد إذا اختلفت رجعت كل عادة إلى أصل فرعى يحكم به عليها».

ولذلك قال ابن القيم فى بداية فصل (تغير الفتوى) من أعلام الموقعين (٣: ٢٧): «.. إن الشريعة مبناهما وأساسها على الحكم والمصالح، =

= وهى عدل كلها، وكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل.. إلخ».

ومما أورده ابن القيم وغيره كأمثلة على تغير الفتوى بتبدل المصلحة:

١- إن النبى ﷺ نهى عن أن تقطع الأيدى (أى: للسارقين) فى الغزو، مع أن هذا حد، ولكن النهى هنا خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض من تعطيله أو تأخيره، كالحاق من استحق عليه الحد بالعدو ومعاونته فى الحرب ضد المسلمين.

٢- أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أسقط الحد بالقطع عن السارق عام المجاعة.

٣- وعن سلمة بن الأكوع - رضى الله عنه - «أن النبى ﷺ رأى نيراناً توقد يوم خيبر، قال: علام توقد هذه النيران؟ قالوا: على الحمر الإنسانية. قال اكسروها وأهرقوها. قالوا: ألا نهريقها ونغسلها؟! قال: اغسلوها» رواه البخارى.

بقى أن نقول: إن هناك حدوداً وقواعد لهذا التغير فى الفتوى، وقد قسم ابن القيم نفسه الأمر؛ فقال فى إغاثة اللهفان (١: ٣٣١): «إن الأحكام نوعان: نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الأزمنة ولا الامكنة، ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك؛ فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

والنوع الثانى: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً، كمقادير التعزيرات وصفاتها؛ فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة.. إلخ».

ونحو هذا قرره الشاطبى فى الموافقات، ومن أراد المزيد فليراجعه فى مظانه، والله أعلى وأعلم.

والاختلاف - كما قررنا وكررنا - طبيعة مطبوعة، وشرعة مشروعة، وما فرق الأمة اختلافها على الفروع، وإنما فرقها فرط التعصب للفروع، أو على الفروع. واختلاط السياسة واستغلالها للتعصب فتكون سبباً للاحتلال والاستغلال.

١٧- تجميع لا شرذمة :

يجب أن ينصرف (علماء المسلمين) - أولاً وقبل كل شيء - إلى وضع حد نهائي بات، في نطاق اليسر والسماحة وحسن الظن، وسعة الأفق، تنهادن على أساسه هذه الفرق، وتترابط برباط تاريخي قاطع، يوحد الجهود، ويوجهها جميعاً إلى تنسيق التعاون، مثلاً على:

١- خدمة المتفق على مشروعيته عند الجميع.

٢- مكافحة المتفق على ممنوعيته عند الجميع (وكلا هذا وذاك كثير متشعب مترام، يستغرق وحده كل الوقت وكل الطاقة).

٣- طي صفحات الحرب المذهبية، أو على الأقل المهادنة الإيجابية، فيما يتعلق بالخلافات الفرعية، التي لا يمكن الاستقرار فيها على رأى يقينى موحد، بحكم اختلاف الطبائع والفهوم، والبيئات والتاريخ، ومصادر الأحكام، وانفعالات الوراثة، ومستويات الاجتهاد، ومقتضيات الحياة، وحيوية الدين، كما كررنا وقررنا.

- ٧٤ -

(على أن دوران كل أو جُلّ هذه الخلافات الفرعية، بين مرتبتى الرخص والعزائم - كما أسلفنا - يكفى فى إطفاء نار العداوة والبغضاء والحقد السائل على الأقلام والألسنة بين الجميع).

٤- إن مرد هذه الخلافات على الأغلب عائد إلى سوء ظن كل جانب بالجانب الآخر، وسوء التحامل والغلو فى نقل أحكام الخطأ والصواب، أو المشروع والممنوع، أعنى: أحكام الحلال والحرام إلى أحكام الكفر والإيمان، والشرك والتوحيد، ومبعثه على الأغلب هو الغلو فى تسمية الأشياء بغير أسمائها، والحكم على الناس بأسوأ الفرضين، والإيمان الخاطئ بضرورة إلزام الناس برأى فرعى معين!!.

(ونحن إذا واجهنا هذه المشكلة بعلاجها الطبيعى، فقد ضمنا تأمين الأمة من استفحال مصيبة الاستهلاك الذاتى، والفتنة الداخلى، وفرغناها لمواجهة مشاكل التنصير والتبشير، والاستشراق، ومكائد الاستعمار، واستشراء الانحلال واللا دينية، وشراسة المذاهب الوافدة المدمرة).

إنه ما من مسلم فى الدنيا إلا وهو يتمنى أن تخطو كل جماعة خطوة إلى أختها فى الصف الإسلامى، فلا تفقد خصائصها ومقومات كيانها، ولكنها بهذه الخطوة تقدم إلى نفسها وإلى بقية المسلمين قوة ودفعاً، وحيوية إيجابية، تعود عليها وعلى الإسلام بالمجد كله.

- ٧٥ -

١٨- فلندع مهزلة الخلاف على الفروع :

استند الكلام على الخلافات الفرعية ، وترجيح بعض أطرافها على البعض الآخر كثيراً من أوقات المسلمين في الماضي والحاضر، وقد ذهب منهم من ذهب، وبقي من بقي، ولا تزال هذه هي هي، تزيد ولا تنقص، وتفسد ولا تصلح، ويستغلها ذوو النفوس المريضة، والمستأجرون لأرخص الأغراض بأرخص الأثمان، ويستغلها المستعمرون وأذئابهم في بلاد الإسلام في قتل الروح الوطني، وإطفاء الحمية الدينية، والاشغال عن كبريات الأخطار، والتمكين لأسباب التفرقة، وإيقاظ فتنة العصبية، واستكلاب الأحقاد، وإيغار الضمائر.

ويستغلها المبشرون والمنصرون من أعداء الإسلام في الدس لهذا الدين، واستكشاف ما قد يحسبونه مواطن ضعف فيه (وحاشا له)، ويأخذون من سقطات بعض الألسن أو الأقلام وهفوات الأفهام ما يصوغون منه سلاحاً يطعنون به في وجه الإسلام وظهره، ومنها ما يكتبه العلمانيون واللاذينيون في هذه الأيام الرديئة^(١).

وهكذا.. لم يصب الإسلام من وراء هذه الخلافات على تلك الفروع إلا كل جريرة، وكل كبيرة!! فلم ينل منها أية منفعة؛ بل (١) وعندما ظهر كتاب «اجتهاد الرسول» جعلت جريدة - غير إسلامية - تنقل فصولاً من هذا الكتاب السلفي التوحيدي بعنوان «نبههم بأقلامهم»، وكادت تكون فتنة سببها السلفية التوحيدية ، لولا لطف الله.

نحن لا نقول بتذويب المذاهب والطوائف؛ فلعل هذه أن تكون الخرافة الخرفة، التي لا تدور في ذهن أى عاقل عارف بسنن الحياة وسوابق التاريخ، وأحكام الأمر الواقع، ولكننا نقول بالتقريب الفكرى، والتعايش السلمى ، والتعاون على المتفق عليه، أمراً ونهياً، وفعلاً وتحركاً؛ لصالح الإسلام، وحسن الظن بحيث يعذر المخالف مخالفه، وحسن الإخاء الذى على جوانبه يذهب الزبد، ويبقى ما ينفع الناس !! (اللهم لا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا).



إن مما يفتت الأكباد إصرار جماعة معينة معروفة، على تسمية مساجدها (مساجد التوحيد)، ومعنى هذا أن غير هذه المساجد إنما هي مساجد الشرك والعياذ بالله، ويكون المعنى أيضاً إخراج آلاف من المساجد والمصلين بها من دائرة الإسلام، فتحل دماؤهم وأموالهم ونساؤهم، وهذا ما تتمسك به الجماعات المخربة والإرهابية ونحوها.

وبالتالى يكون الجامع الأزهر من مساجد الشرك وكذلك المسجد النبوى، وبالتالي كافة مساجد المسلمين، فيما عدا مساجد هذه الطائفة، وهذه قطرة من بحار الفرقة فى دين الله، والتعصب لمذهب أو دولة بالذات، وإن تخفى أصحابها بكل أساليب التخفى، فقد انكشفت عوراتهم، وانفضحت سرائرهم، وإن اغتر بهم بعض الغافلين.

كانت هي مرضه المتأزم، وداءه المستحكم، وأدنى الطرق إلى محاولة هدم ما تبقى للمسلمين من موارث الأجداد قولاً وعملاً.

ومثيروا هذا الخلاف في الأمة المسلمة بالمشارك والمغارب طائفة واحدة لا غير، تنتشر في كل الدول وتدعى (التوحيد) احتكاراً وميراثاً، وترمى بقية الأمة صالحها وطالحها بالشرك والإكفار، وتستحل من المسلمين ما حرم الله من عرض ومال ودم.

وهذه الطائفة قد تخصصت في المغالطة والجدل، والجرأة على الرأي، والفحش في العبارة، والتطاول على أعلام الإسلام، وإشعال حرب اللسان والقلم كلما أطفأها الله، فتنال من نفسها ومن ساداتها ما لم ينله منها أعداؤها أجمعون. برغم ما تبذل من مال في كل الدول. وفي الأمة طوائف شتى، على معتقدات شتى، ومذاهب شتى، وهي في ذات الوقت مؤتلفة، أو تكاد، منسجمة أو تكاد، أو على الأقل مسالمة أو كأنها مسالمة، تبذل رأيها في احتياطه، وتفيض بما عندها بلا فتنة.

فلو أن هذه الطائفة (عقلت) وسارت سيرة بقية الطوائف لما كانت في هذا الموضع الذي لا تحسد عليه، ولما اضطرت كثير من أعف الناس إلى كشف عورتها، وفضيحة ثورتها، ولما لفتت الأنظار، إلى ما وراء الأستار، من مخزيات الأسرار!!

ولقد أجمعت الأمة على أن الخلاف على الفرعيات أمر فطري

لا مناص منه، حدث لعهد النبي ﷺ، ولعهد الصحابة والتابعين ومن والاهم؛ فهو طبيعة إنسانية لا بد منها بحكم العقل والنقل، ما في ذلك شك ولا مرية، كما قررنا وكررنا، بقصد التعريف والتأكيد.

والخلافات الأساسية قد تركزت وثبتت وتأكدت، وفيها وضعت المؤلفات، ولها أسست المؤسسات، وأصبحت موارث في الدعاة والقلوب، واتصلت بالكيان البشري والقوى الباطنة، وما تفرع من هذه الخلافات الكبرى من خلافات صغرى أخذ حكمه، وهي جميعاً تدور في الفلك الفروعى الدينى، ولا تضيق بها طبيعة الإسلام.

فلا علاج لها لدى الصادقين من المصلحين إلا بوسائل التعقل والتقريب والتيسير، وفهم كل فريق ما عند صاحبه فهماً مرناً محبباً، وكان هذا هو الأصل الذى تشبعت به نفوس المتمذهبين من قبل، فصلى الشافعى خلف المالكى، واقتدى الحنبلى بفتوى الحنفى، والتقى الشيعى بالسنى؛ وسار كل منهم فى طريقه، يبنى لنفسه ولا يهدم سواه، فلم يكن من وراء هذا التمدذهب سوء يذكر، بل كان تفريقاً أدنى إلى التوفيق، لولا ما زاده المتأخرون من التنطع والفروض المستحيلة، وجنون التعصب والتجريح، ودعوى احتكار الصواب.

ونحن والعقلاء من قبل ومن بعد، يعلمون أنه من المستحيل جمع الناس على رأى واحد، فإضاعة الوقت فى محاولة هذا عبث أطفال، أو لعب بالنار يفضح الرجال، أو مرض خبيث مستنكر قتال.

وما هو ذا الوطن الإسلامى الجريح، يوشك أن يلفظ أنفاسه

خواطر بالغة الأهمية

تذكيراً للمغالين والمتشددين والمتطرفين والمخربين

بعد أن قدمت هذا الكتاب إلى المطبعة، كنت أفكر في بعض ما سجلته من الأدلة، فحضرته هذه الخواطر تأكيداً لما ذهبت إليه في هذا الكتاب من التيسير على المسلم، فرأيت أن أسجلها ختاماً للبحث وإثراءً لما قدمت فيه من أدلة في سبيل محاولة تجميع الأمة، والتخفيف من حدة الخصومة بين طوائفها، وبخاصة بين الصوفية الحققة، والسلفية الأصيلة، وها أنذا بتوفيق الله أسجلها، كما حضرته بغير ترتيب، أو ما كان لا بد منه، من إلحاقها بموضوعاتها، ولعلها على ما هي عليه، تهيئ نفعاً للمسلمين، إن شاء الله.

١- رب واحد، ونبي واحد، وكتاب واحد، وقبلة واحدة، فمن أين تأتي التفرقة والتشردم؟ ١٩.

٢- روى البخاري والنسائي: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته»، فكيف نخلف ونفترق؟ ١٩.

٣- أجاز النبي ﷺ الاجتهاد بما جاء في قصة معاذ، حين وجهه الرسول ﷺ إلى اليمن، فسأله: كيف تحكم؟ فقال: بكتاب الله، ثم بسنة رسول الله، ثم اجتهد استطاعتي، فأقره النبي ﷺ وأكرم المجتهدين بتكريمه.

العزاز، في كل أرض، فلتوجه جميعاً إلى إنقاذه، ولنبدأ بالمتفق عليه، ولنخفف من غلوائنا على المختلف فيه، ولنقدم الأهم الأعمق، ولنذع مهزلة الخلاف على الفروع، إن كنا جادين في خدمة الله والوطن، ولنتذكر محنة الإسلام في البوسنة والشيشان وكشمير وفلسطين وبورما والفلبين والهند... بل في الدول الإسلامية التي استقلت عن روسيا، وكفانا ذلاً أن يستنصر بعضنا على بعض أهل الصليب واليهود.. اللهم قد بلغت.. اللهم فاشهد.. ونستغفر الله ونتوب إليه.

* وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم *

وكتبه ابتغاء رضوان الله ونفع المسلمين المفتقر إليه تعالى وحده

محمد زكي الدين بن إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي

رائد العشيرة المحمدية، وشيخ الطريقة المحمدية الشاذلية

وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر المحمية

* تمت بحمد الله (الطبعة الأولى) من هذا الكتاب (الخلافات الفرعية ومشروعية العمل

بأحد الوجهين فيها بلا تعصب ولا تأنيب) لفضيلة الأستاذ الإمام السيد محمد زكي إبراهيم

رائد العشيرة المحمدية، وذلك بالمركز الرئيسي للعشيرة المحمدية بالقاهرة - مصر، في شهر

جمادى الأولى (١٤١٦ هـ)، الموافق شهر أكتوبر (١٩٩٥ م). والله ولي التوفيق

٤- وعند الشيخين ما ملخصه: «من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد»، فهذا حث على الاجتهاد.

٥- وعندنا أن الشريعة أشبه بالشمس يرى منها الناظر بقدر قوته بصره، أو هي أشبه بالمحيط يعترف منه أهل الشاطيء، كل بحسب قدرته وطاقته؛ فكل على صواب بما حصله، فلا تباغض أو تحاسد أو تدابر أو بذاءة، ولكن تعاون وتناصح نظيف.

٦- وكيف والنبى ﷺ يقول: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله»، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

ثم كيف والإمام على - كرم الله وجهه - صلى على قتلى مخالفيه فى واقعتى الجمل وصفين، ولم يرمهم أو يصفهم بجهل ولا بكفر، ولا بشرك ولا ضلال، ولا أخذ منهم أسارى، ولا استحلال أموالهم، ولا أجهز على جريح منهم؛ ولكن قال: «هم إخوان لنا بغوا علينا» أدباً واحتياطاً وتعليماً وحسبة وإيماناً.

٧- وفى خطبة الرداع - فى أكثر من مائة ألف حاج - يقول ﷺ: «فإن الله حرّم عليكم دماءكم وأعراضكم وأموالكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، اللهم هل بلغت!!، اللهم هل بلغت!!» فكيف يستحل المتمسلفون كل هذا ممن لم يكن معهم؟! دمه وماله وعرضه باعتباره مشركاً أو كافراً.

٨- وفى البخارى عن عبادة بين الصامت - رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق: أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» وفى رواية: «من أى أبواب الجنة الثمانية، تأمل كثيراً!!، ثم من تصدق؟! الرسول المعصوم ﷺ أم هؤلاء!!».

٩- وفى البخارى عن معاذ بن جبل، قال ﷺ: «ما من أحد يشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، صدقاً من قلبه: إلا حرمه الله على النار». وفى رواية: «وإن زنى، وإن سرق»، قال معاذ للنبي ﷺ: أفأخبر بها الناس؟ قال ﷺ: «إذن يتكلموا» ولكن معاذاً أخبر بها (تائماً وطمعاً فى مغفرة الله) بشارة المسلمين، وهذا يذكرنا بقول الشيخ الدبّاغ: «سيروا إلى الله عرجاً ومكاسير».

١٠- وفى تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فى سورة [فاطر]: أخرج البيهقى وابن أبى حاتم وابن جرير، عن ابن عباس، قال: «هم أمة محمد ﷺ، ورثهم الله كل كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب» (فتأمل ثم تأمل!!).

١١- وفى الطبرانى والبيهقى عن أسامة بن زيد، قال ﷺ فى هذه الآية: «كل من هذه الأمة»، وفى الباب أحاديث كثيرة.

شئى بشارة لهذه الامة بالجنته ، وإن اختلفت فى فهم الفروع ، فما من أحد يتمنى لنفسه الخطأ ، أو يرجو أن يدخل النار باجتهاده ؛ بل كلُّ يرجو الله والدار الآخرة لا محالة ، ومن هنا صحَّ له الأجران أخطأ أو أصاب .

١٢- لقد كره الإسلام الغُلُوَّ حتى فى الصلاة ، وهى أم العبادات ؛ وكيف قال النبي ﷺ لمعاذ حين أطل الصلاة : «أفتان أنت يا معاذ؟» ، وفى البخارى قال ﷺ : «فتان ، فتان ، فتان» ، فكيف بالغلو فى غير ذلك ، وفيما شاع من التورك على كبار أئمة المسلمين والأولياء والصالحين ، بل والبناءة عليهم ممن لا يساوى شروى نقير فى العلم بدين الله ، والعمل به بكل مستطاعه ، واتهامهم بما أيتظ الفتنة وفرق المسلمين . وأحل دمائهم وأعراضهم وأموالهم .

١٣- وفى البخارى أن حاطب بن أبى بلتعة مع محاولة إخباره المشركين بتحريك جيش رسول الله ﷺ لغزوهم يوم الفتح ، فلم يرمه النبي ﷺ بكفر ولا شرك ولا زندقه ، ولا حتى بلفظة كريمة ، مع أن هذه الفعله غاية فى الخطورة ، بل لعل النبي ﷺ اعتبره اجتهد فأخطأ لحسن سابقته فى الإسلام ، وحسبه أنه كان ممن بايع تحت الشجرة ، وشهد بدرًا وغيرها ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ .

١٣- يقول الإمام على : «يهلك في رجلان : محبّ غال ، يقول عني ما ليس في ، ومبغض قال ، يرميني بما نزهني الله عنه» ، أى : إن المتشدد المغالى هالك ، على وجهيه حباً أو سُخْطاً .

١٤- وفى الحديث الثابت : «أشد الناس بلاء : الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمل فالأمل ، ويبتلى المرء على حسب دينه ، وما يزال البلاء بالمؤمن ، حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة» ، ورواية «حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة» ، وفى الحكمة : (المصاب من حُرِّم الثواب) بالصبر والرضا عند المصاب .

١٥- وفى الحديث : «ما كان من العين والقلب فمن الله (أى الحزن والبكاء عند البلاء) . وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان» ، وقد تبرأ النبي ﷺ من (الحالقة) يعنى لشعرها ، مبالغة فى الحزن ، و(الصالقة) التى ترفع صوتها هلعاً ، (التصويت) عند المصيبة للمبالغة . اعتذر مرة أخرى ، وأسأل الله المغفرة ، وحسن الخاتمة بنعمته

تنبيه لا بد منه

نرجو أن يكون من المعلوم الذى لا شك فيه أننا بما كتبنا هنا ، وبما سبق أن كتبنا وبما نطمح أن نكتب ، لا نريد أبداً شخصاً معيناً ، ولا جماعة محددة ، وإنما نكتب تسجيلاً لما نراه صواباً فى اجتهادنا عن المبدأ أو المذهب أو الرأى أو الاتجاه من حيث هو ، لا من حيث العاملين به ، أو محبيه ، أو القوامين عليه ، وليس فى اعتبارنا الأشخاص أبداً ، ولكن الدعوة والرأى والمبدأ والمذهب لا غير .



كلمات ذات معنى

من تعليق الأستاذ عبد القادر عطا، على رسالة الشيخ ابن تيمية المسماة (حقوق أهل البيت) بين البدعة والسنة، وهذه المختارات سلفية، فيها روائح اعتدال لجانب التصوف الحق، بمقدار ما فيها من صراحة ببعض مناقص التمسلف المعاصر، قال الأستاذ:

الواقع إن هذا (الخلاف) بين الصوفية والسلفية ما زال قائماً في حدته إلى الآن، ولكنه في عصرنا لا يتخذ صفة البحث الدقيق الهادف بقدر ما يتخذ صفة الرفض الكلي أو القبول الكلي... فالسلفيون يرفضون كل ما يندرج تحت كلمة التصوف، من سلوكيات حتى ولو كانت سلفية شكلاً وموضوعاً، والصوفية يرفضون إعادة النظر في موروثاتهم، وفي الوقت نفسه يدعون أنهم (سلفيون) قائمون بالكتاب والسنة. (ليس كل الصوفيين كذلك)!!.

والبحث الدقيق الواعي والمخلص لله ورسوله يخلص بنا إلى النتائج التالية:

أولاً: فيما يتصل بالسلفية:

١- هناك سلوكيات مما اندرج تحت اسم التصوف هي في حقيقتها سلفية أصيلة، كالزهد والخشوع والإخبات والاستجابة للروحيات، وتبدأ تلك المدارس منذ عصر الصحاب وتمتد إلى التابعين وتابعيهم،

ومن أظهروهم: أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وعبد الله بن عمر، وسعيد ابن المسيب، وأحمد بن حنبل، والنووي، وغيرهم، وعلى هذا فإن رفض السلفيين لهذه السلوكيات يعتبر هو الآخر ابتداءً في الدين ما ليس منه بحذف أساسيات لها ما لها من الآثار البناء في حضارة الإسلام.

٢- أن السلفية قد تطورت كما تطور التصوف، فأصبحت تعنى بالشكل دون الجوهر، وشغلت نفسها وشغلت من حولها بالجدل حول الشكليات، وتجمدت أفكارها حول النصوص من الوجهة الحرفية البحتة^(١).

٣- كانت موجة الرفض الشامل وبالا على الفكر في دنيا الإسلام، في أقوالهم الماثورة، ودراساتهم النفسية النادرة.

ثانياً: فيما يتصل بالصوفية:

وفما يتصل بالصوفية كانت البلية أعظم ورغم احترامنا للمعتدلين من رجال التصوف، السالكين على دربه، فإننا نأسف أشد الأسف لما أصاب التصوف على أيدي (بعض) أهله من موبقات، نرى أنها قد (١) بل تغالوا أكثر من ذلك فاستباحوا أن يتهموا الصوفية بعمامة بالكفر والشرك والزندقة والتبدع في قسوة وغلظة وغل عارم لا يسفه أدب ولا علم، ولا إصلاح، بل إفساد فوق إفساد.

تمثل خطراً على العقيدة ذاتها، ويمكن إجمال تلك الأخطار فيما يلي:

١- فقد تطورت المصطلحات الصوفية الأساسية تطوراً خطيراً نظراً للاستهواء الذي يفوح من أرجاء عالم التصوف، ونظراً لما يتبع الصفاء الروحي من شفافية قد حجب الكثافة المادية إلى ما وراءها من المعاني، كل ذلك أدى تطور خطير في المصطلح ابتعد به عن أصله الصحيح إلى تفرعات باطلة لا أصل لها من دين، في الوقت الذي تنفخ فيه بالابتداع.

فمثلاً مصطلح «المريد». وهو من الإرادة، والإرادة في المصطلح العلمي السلوكي الذي يمكن أن نسميه بالمصطلح الصوفي هي: عملية تسبق النية في العمل، إذ يحدد العامل إرادته من عمله، وحينما يجدد إرادة الله يبدأ في تصفية إرادة الله من كل شائبة، ومن كل خاطر يختلط بتلك الإرادة فيفسدها.

هذا التحديد هو الإرادة، وفاعله هو المريد. هكذا سجل علماء (التصوف السلفي النقي) من أمثال الحارث المحاسبى وأضرابه... ولكن هذا المصطلح تطور فأصبح المريد هو مريد الطريقة، ثم تطور فأصبح المريد هو مريد شيخ بعينه... فمن إرادة الله إلى إرادة الشيخ كانت بلايا لا يعرف مداها إلا الله والراسخون في العلم.

٢- وترتب على فساد المصطلح هكذا عدوان على العقيدة ذاتها.

فالشيخ أنجاهل قد استهواه اجتماع مردييه من حوله، وأصبح مشغولاً بالحفاظ على هذا المجد الدنيوي الذي يجمع الناس من حوله طائعين لأمره، مبجلين له، خاضعين لسلطانه، ومن ثم ابتدعت تعليمات وقواعد لآداب المريد مع شيخه منها:

(أ) ألا يسيء الظن بشيخه، ولو رآه على كبيرة من الكبائر... وهنا اختلفت التعليقات (عندهم) فمن قائل: إن الشيخ له حال مع الله، لا يعلمه إلا الله، فلا يجوز الاعتراض عليه. ومن قائل (عاقِل): إن الشيخ مرشد وليس بمعصوم... ولكننا في كلا الحالين لا ندرى علة شرعية لتعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأصل النصح لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم.

وكيف يمتنع الاعتراض على شيخ مرتكب للكبيرة، ولم يمتنع الاعتراض على رسول الله ﷺ من عمر حين ذهب للصلاة على زعيم المنافقين، ثم منه ومن غيره في صلح الحديبية.

(ب) أن يطيع شيخه طاعة عمياء، ولو لم يعلم لأمره إياه حكمة ظاهرة.

وغير هذا كثير مدون في آداب المريد مع شيخه في كتب السلوك الصوفي المتأخر «خلاصتها... عبادة الفرد» أو إذلال المسلم، والحجر على فكره، ولو كان أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر.

ومع كل ذلك فلم نعلم أن التصوف قد تطور في عصرنا الحاضر إلى شيء نافع للإسلام والمسلمين^(١)... اللهم إلا حشد من جهلاء المشايخ ضاع بينهم المخلصون... وطقوس وثنية من الطبل والزمر والمكاء والتصدية أثناء ذكر الله... ثم الرقص البشع، ثم الاختلاط المردي بين الجنسين، ثم دنيا المجاذيب بما فيها من الأحوال المزعومة التي لا يجوز الاعتراض عليها من مخلوق، وإلا حاقت بالمعترض لعنة الله (فيما يقولون).

نقول : وهذا ما تحاربه العشيرة المحمدية، وتكافح أهله.

(١) هذا إنما هو فيما يطلق عليه شيخنا الرائد «التصوف»، أما الصوفية الحق فآثارهم ظاهرة، وخدمتهم للإسلام والمسلمين جلية، فانظر إلى جهادهم في تركيا والشيشان، والبوسنة وباكستان، وانظر إلى حملهم الدعوة الإسلامية إلى بلاد إفريقيا وأوروبا والأمريكان، وشتى بلاد العالم، مع جهادهم للنفس وإصلاحهم ذات البين، ودعوتهم إلى الحب والسماحة، وهذه إحدى دعواتهم في مصر، دعوة «العشيرة المحمدية»، تلك الدعوة التي اضطلع بحملها شيخنا الإمام الرائد - حفظه الله - فقام بها خير قيام فيما نحسب - ولا نزكى على الله أحداً - حتى انتشرت مبادئها في كثير من أرجاء العالم، وها هي مدرسة الحديث الصوفية تساهم في الحفاظ على السنة، آل الصديق الغماري، وآل الكتاني وغيرهم في المغرب، وشيخنا الرائد وتلاميذ الحافظ التجاني وتلاميذ الشيخ الصديق الغماري وغيرهم في مصر، والسيد محمد علوي المالكي في مكة المكرمة، وآل بلفقيه في إندونيسيا، ومئات من خيرة المحدثين الصوفية في شتى أنحاء العالم.

ونتبع هذا الكتاب القيم بتعريف
هوجز بالعشيرة المحمدية ومقاصدها
وموقفها من النظم المدنية والجماعات
والهيئات الدينية والصوفية المختلفة

العشيرة الحميرية

للخدمة الإسلامية الجامعة على أساس سماحة الكتاب والسنة
دعوة إصلاحية روحية وعقيدة سلفية صوفية
وخدمة اجتماعية خيرية وهيئة ثقافية دينية

أولاً : تعريف موجز بالعشيرة الحميرية :

١- شهرت جمعية (العشيرة الحميرية) برقم (٦٧٥) قانون (٣٢) لعام (١٩٦٤)، واعتمدت من الهيئات ذات النفع العام بالقرار الجمهوري رقم (١٩٦٨/٧٥٠)، واعتمدت من وزارة الأوقاف كهيئة دينية ، وكانت قبل ذلك تعمل منذ تأسست الطريقة الحميرية من نحو قرنين كهيئة واحدة ذات اختصاصين.

٢- المنهج :

١- الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، على أساس الحب في الله، والتعاون واستعادة ما يمكن من أمجاده، بكل وسيلة سليمة مشروعة ، بعيداً جلتاً عن السياسة وما يرتبط بها.

٢- التزام الوسطية الإسلامية المنصفة، والاعتدال في الدعوة، ونشر المحبة والسلام. والعلاقة بالله على أساس التصوف الحمدي الصحيح.

يا حبذا !!

قال فضيلة الإمام الراحل :

أليس إلا نلتقى

ياناسر للتفريق !!

يا حباؤنا

إذا افترقنا نلتقى

(ديوان البقايا : ٨٦)

٣- حسن الظن بأهل القبلة، واحترامهم، فرادى وجماعات، سلفاً وخلفاً، قولاً وعملاً، وتقدير ظروف حياتهم وبيئاتهم، وطبائع أيامهم ومفاهيمهم والمدسوس عليهم، والتماس العذر فى الخلافات الفرعية؛ فأكثرها وجوه للحكم الواحد، يتحقق الصواب بأى وجه منه، دون تعصب ولا تأثيم فمرجع الجميع مفاهيم الكتاب والسنة.

٤- إنشاء المساجد والزوايا والمدارس والكتاتيب، والمعاهد والمشافى ودور الإيواء وبيوت الطلبة، ونحوها من المنشآت الإسلامية، كلما أمكن ذلك (وبحمد الله قد أنشئ منها الكثير).

٥- تقديم الأهم، واغتنام الممكن، وبذل الجهد المستطاع نصحاً للأمة، والإصلاح السلمى من طريق التصوف والربانية الإسلامية الصحيحة.

٦- الأدب والتفاهم والمرونة والمسالمة والتدرج مع الالتزام بمبادئنا المسجلة بمطبوعاتنا لتحقيق جميع مقاصدنا فى حدود الشرع والقانون.

٣- المقاصد :

(فى كل مقاصد الدعوة ومراحلها وأساليبها) :

١- محاولة محو الأمية الدينية والروحية والثقافية والخلقية ما أمكن، ومحاولة ربط العلوم الحديثة النافعة بحقائق الإسلام ومبادئه وعلومه، تفكيراً وتجديداً وابتكاراً واختراعاً بما ينفع الناس.

٢- العمل على سيادة شرع الله، بالحكمة والتدرج والمتابعة والمثابرة، والإقناع والمثابرة، والإقناع، والمسالمة وإن طال المدى.

٣- الاهتمام بأمر المسلمين عامة والصوفية خاصة، فى كل أرض أو وطن، مسلم أو غير مسلم، وإقامة الندوات، والمؤتمرات بأنواعها، ومجالس العبادة، لخدمة الدين والتصوف والوطن الإسلامى.

٤- الإصلاح الصوفى الشامل؛ برده إلى الكتاب والسنة، مساهمة فى الصحوة التى بدأتها العشيرة، مع حل مشكلاته ومصطلحاته، ورد اتهاماته والتجنى عليه (راجع البحث الهام للسيد الراحل فيما يأتى).

٥- التقريب العلمى والأخوى بين طوائف المسلمين، وحفظ حقوق السلف الصالح، ولو بخدمة المتفق عليه، والعذر مع النصح فى المختلف فيه. بلا تعصب ولا تشنج ولا بذاءة على المسلمين.

٦- إحياء الفرد المسلم، والبيت المسلم، والمجتمع المسلم، والحكم المسلم، بالعودة إلى تربية الإسلام، وربانية الإسلام، وآدابه، بكل وسيلة مشروعة.

٧- الخدمة الإسلامية العامة لجميع أفراد وطوائف الأمة، خصوصاً فى الأحياء الشعبية والفقيرة، بالأساليب التعاونية والصحية والاجتماعية، والحرفية والثقافية والبيئية، وفصول التقوية والدروس المجانية؛ لمواجهة التنصير والعلمانية والإلحاد الصريح والمغلف.

١- النشاط الثقافى والدينى :

١- أصدرت العشيرة عدداً كبيراً من الكتب والرسائل ضمن سلسلة (مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية)، فى مختلف القضايا الدينية والثقافية، كما أصدرت عدداً كبيراً من نشرات الشباب وكتيبات الجيب، ولا تزال إن شاء الله .

٢- تصدر العشيرة بحمد الله (مجلة المسلم) الناطقة بلسان العشيرة، وهى أول مجلة صوفية صدرت بمصر، تخدم مقاصد دعوة العشيرة، فى حدود علوم السنة والشريعة، وتقدم التصوف الإسلامى على حقيقته اللازمة للسمو بحياة كل مسلم.

٣- تعقد اللقاءات والمؤتمرات الثقافية والدينية والروحية، والندوات، والمحاضرات، والدروس، للشباب والرجال والنساء، فى مختلف مساجد العشيرة وساحاتها وأنديتها، على أرقى وأصح الأساليب. مع مكافحة العنف والتطرف والتخريب والتدمير والإرهاب.

٤- أقيمت (مكاتب) لتحفيظ القرآن الكريم، ومراكز لدروس التقوية لمراحل التعليم المختلفة، وفصول لمحو الأمية فى عديد من الجهات التابعة للعشيرة، بالإضافة إلى المساجد والزوايا والمنشآت الأخرى.

٣- النشاط الاجتماعى :

١- أقيم عدد من المراكز العلاجية والمساجد بالمجمعات الإسلامية التابعة للعشيرة، خصوصاً فى المناطق الفقيرة المحتاجة، وهى مراكز متخصصة ومتطورة، ومتكاملة الأجهزة والأطباء، وبأجور رمزية.

٢- وعدد من الأندية للشباب، حتى يمكن احتواء رجال المستقبل، وعدم تركهم للردائل، وضمهم إلى الصفوف المحمدية الناجحة، والحيلولة بينهم وبين الأفكار الملحدة والعلمانية المخربة.

٣- وأقيم أيضاً عدد كبير من المشاغل ودور التأهيل والأندية النسائية ودور خدمة الأسرة والمرأة العاملة على أحدث الأساليب.

٤- ويتبع العشيرة عدد من الحضانات ودور التعليم للأطفال، يسير التعليم فيها على أحدث المناهج التربوية والإسلامية السمحة الجامعة.

٥- هذا فضلاً عن رعاية الأيتام والطلبة والمساعدات الاجتماعية، للفرد وللأسر الفقيرة والإعانات الدورية لمن يستحقها.

* ويتم كل ذلك من خلال المركز الرئيسى للعشيرة بالقاهرة، وعدد من الفروع المنتشرة فى مختلف محافظات الجمهورية.

٥- أهم المجمعات والمساجد والأنشطة بالمركز الرئيسى :

١- مسجد المشايخ (أمامة الدعوة) بقايتباى ت : ٥١١٦٠٤٧ .

٢- مسجد مجمع العشيرة المحمدية بمنشية ناصر .

- ٣- مسجد أهل الله بعزبة برقوق ت : ٥١٠٩٥١١ .
- ٤- مسجد مجمع العشيرة المحمدية بالدويقة .
- ٥- مسجد العشيرة المحمدية بالدويقة الجديدة .
- ٦- مسجد سيدى حسن العدوى بالمشهد الحسينى (المركز الرئيسى) .
- ٧- مسجد الأمير محمد بن توران بالصاغة .
- ٨- المركز العلاجى بمجمع العشيرة بمنشية ناصر شارع نبيل الوقاد .
- ٩- المركز العلاجى بالسروجية ت : ٥١١٠٨٦١٥ .
- ١٠- المركز العلاجى بالدويقة . سفح المقطم .
- ١١- النادى الثقافى الاجتماعى بمجمع العشيرة بمنشية ناصر .
- ١٢- حضانة الإمام الحسين ت : ٥٩٠٦٤٥٩ .
- ١٣- حضانة قايتباى ٨٠ شارع السلطان أحمد .
- ١٤- حضانة الزهراء بمنشية ناصر .
- ١٥- حضانة السلام وحضانة ذات النطاقين بمساكن منشية ناصر ت : ٥١٠٣٧٣٩ .
- ١٦- حضانة النبوية وعبير الإسلام بباب الوزير ٥١١٧٤٠٩ .
- ١٧- حضانة الدويقة بمجمع العشيرة بالدويقة .
- ١٨- النادى النسائى بالحسين ت : ٥٩٠٦٤٥٩ .
- ١٩- النادى النسائى بالنبوية ت : ٥١١٧٤٠٩ .
- ٢٠- تأهيل فتيات السلام ت : ٥١٠٣٧٣٩ (الفتيات المحمديات) .

- ٢١- تأهيل فتيات قايتباى ت : ٥١١٦٠٤٧ (الفتيات المحمديات) .
 - ٢٢- مشروع خدمة المرأة العاملة ت : ٣٩٠٧٨١٣ .
 - ٢٣- مشروع محو الأمية بمجمع العشيرة بمنشية ناصر .
 - ٢٤- مشروع محو الأمية بالدويقة والسلام منشية ناصر .
- ثانياً : موقف العشيرة المحمدية من النظم والهيئات المختلفة .
- ١- نحن والنظم المدنية :

ما دام أساس الشيوعية هو: إهدار القيم المعنوية فى الحقيقة الأدمية فهى لا تعترف بالله، ولا بالنبوة، ولا بالإنسانية، ولا الحرية، ولا التدبير، ولا الكرامة، ولا الحقوق، ولا الأنساب، ولا الحرمات، ولا الامانات البشرية، لا بالمعنى الأخص، ولا بالمعنى الأعم، وهما أساس الإسلام، فمن قال بعد ذلك بأن الشيوعية من الإسلام علماً بذلك الذى ذكرنا (وهو قليل من كثير) فقد كفر أو فسق أو ظلم .

ومن الشيوعية خرجت العلمانية والوجودية ، وما يسمى خداعاً: الروتارى، والليونز، ونحو ذلك من الدعوات الأجنبية البراقة، وقد كثرت كثرة قاتلة، وما من دعوى تدعيها فيها شىء من الخير إلا وهو من صميم الإسلام ، وقد اتخذوها حجاباً على مقاصد الهدم والتخريب والتدمير المطلق للإسلام . ونشروها بين الأوساط غير الفقيرة . وهى: دعوات الاستعمار، والصهيونية، والماسونية، والتنصير،

والتبشير، والتغريب، والاستشراق، كيفما تلونت وتنوعت، ولبست أثواب التجديد والتحديث؛ فإنما هي شحنات ناسفة تستهدف الإسلام بأخبث الطرق، وليس إلا الإسلام.

إننا نعرف إسلامية محمدية إلهية، التي هي القرآن والسنة، وهي التي حددت الأوضاع البشرية كلها، وحفظت أنواع حقوق الأفراد والدول والجماعات، والشعوب والحكومات، وحلت جميع مشاكل الطبقات، وضمنت للناس الاستقرار والأمن والرخاء، والعدالة والحضارة، والتقدم والسعادة، وتحقيق خلافة الله على الأرض على كل الوجوه. علماً ودينياً وخلقياً وتقدماً وحضارة وسيادة وسعادة.

وهذا هو حكمنا على جميع الأوضاع المدنية، فما كان فيها من خير فمن الإسلام لا محالة، وما كان من شر فمن طبيعة هذه الأوضاع، ونحن بالإسلام نكتفى إلى آخر الأبد، والمحمدية: عصارة الإسلامية، وأكسيروها المكنوز، وقد نادينا وننادى : (إسلامية... إسلامية... لا شرقية، ولا غربية)، (ولا قبلية، ولا حزبية).

٢- موقفنا من التصوف والتمصوف :

الصوفى هو: من تمسك بشرع الله، وفهم حقيقة التصوف فى الإسلام، وغايته الكبرى، وأدرك مدى شدة حاجة الحياة الإنسانية الكاملة إليه، باعتبار أن التصوف هو ثمرة التدين وهدفه الأخير.

فهو مقام (الإحسان) الذى هو الفناء فى الحق، ومقتضاه التزام (الكمال المطلق) طوق الجهد، فى كل ما يتعلق بالمرء، فى شئونه الخاصة والعامة، وفيما يتعلق بالامة والأسرة والمجتمع والأفراد.

وطريق الكمال (الاستقامة)، وذلك فرض عين دينى، لا خلاف عليه؛ لاستحالة قيام المجتمع القوى الفاضل إلا به، وأهل هذا القسم (التصوف) أمة واحدة، وإن تعددت أسماؤهم ومناهجهم وأوطانهم، تجمعهم نقطة البداية من التوبة، والنهاية بالمعرفة، وتسعهم سماحة الشريعة ويسرها فيما بين ذلك، فيما لا بد من قول وعمل خاص وعمام.

وهؤلاء هم محل نظر الله وخزائن أسرارهم، وخلفاؤه فى أرضه، وهم أركان هذه الدعوة، وبهم تتعلق كبريات الآمال الدينية والوطنية والحضارية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها. سواء أكانوا موظفين أم أطباء أم مهندسين أم تجاراً أم مزارعين، أم عمالاً أم علماء (دين ودنيا)، أم غير هؤلاء من طبقات الناس فى مستويات الحياة ووجوهها المختلفة.

وليس من الصوفية، جموع الطبول والزمور، والتحرير، والتخريف، والتعطيل والتبطيل، والتنطع والتبدع. وفلسفات الإلحاد، ومناكر الموالد، والمفرقين بين الحقيقة والشريعة، أو القائلين بـ (الاتحاد) أو (الوحدة المنكرة).

ونحن نتفق مع خصوم التصوف فى العمل على إبادة هؤلاء الأدياء بالذات، ونختلف مع هؤلاء الخصوم فى وجوب الحفاظ الكلى على التصوف المصفى الذى هو غاية الحياة، وهو جمالها وبهجتها وسرها، وهو علاجها من آفاتها، وعاصمها من شذوذها، وحاميتها من سقوطها، وطريقها، وسيادتها، إن شاء الله. (إنه التصوف المحمدى، الذى وضع أساسه الكتاب والسنة وكفى).

٣- موقفنا من الهيئات الإسلامية :

ومن فضل الله على مصر، بل على الأقطار الإسلامية كلها، أن اختص كل هيئة إسلامية نظيفة صادقة بميزة وخصيصة، تكاد تكون مستقلة بها، وقد لا توشك أن تزاحمها فيها هيئة أخرى (وإن تشابهت معها فى أعمال الخير العام)، فإذا كل هيئة منها تقوم على ثغر مستقل من ثغور الإسلام، وإذا كل واحدة منها (وكان هذا هو الواجب الحتمى شرعاً وعملاً) تكمل الأخرى، وتشد عضدها حتى لكأن هذه الهيئات جميعاً فروع متعددة لجماعة واحدة، كل منها تخدم فى جانب خاص لا بد منه، وتقوم على ثغر من ثغور الدين. يتحتم أن نحميه.

وعلى هذا الوجه نفهم الجماعات القائمة بيننا الآن، فعلاقتنا بها علاقة الود والأخوة وحسن الظن، فإن اتفقتنا تعاوناً، وإن اختلفنا

تهادناً وما تهاوناً، دوغماً تعصب أو تائيم، أو تكبر وتهديم، أو حقد عقيم.

وطبعاً ليس من هذه الجماعات عصابات الحمقى، والمستأجرين، والمظهريين، وعبيد المال، ونجار تمزيق الصف الإسلامى، ولو بالتطرف الشاذ، ولا من يرون أن الإسلام وقف مقصور عليهم دون أهل القبلة، ولا من يرمون المسلمين بالشرك والكفر والردة والزندقة لغير وجه الله، ولكن لاسترضاء ساداتهم، ولاستمرار تمويلهم، على حساب خيانة وطنهم، والتمهيد لاستعمارهم المذهبى، توطئة لاستعمارهم الفعلى، ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

ثم إن الهيئات السليمة بينها جميعاً كم مشترك من خدمة الألوان الخيرية والوطنية والاجتماعية والصحية المتعددة، فلا موجب إذن لأن يكون بينها تنافر أو خصومة، ولو قامت فى كل حى جماعة خيرية ما كفت حاجة البلد، ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا﴾، وللمجتهد الثواب على الخطأ والصواب، ما لم يتهم غيره بالتبذع والشرك فى غلٍ وحقد مرير، وما لم يزعم أنه هو (الموحد) الوحيد، وبقيّة المسلمين شركون.

٤- موقفنا من مواطنينا أهل الذمة :

أهل الذمة من مواطنينا وغيرهم المسالمين الذين لم يؤذوا الإسلام والمسلمين، قد أوصى بهم الله بأن نبرهم ونقسط إليهم، وأوصى بهم رسول الله ﷺ أعظم الوصية حتى جاء أن «من آذى ذمياً أو حملة

فوق طاقته كان رسول الله ﷺ خصمه وحججه يوم القيامة، وبخاصة أهل مصر، فقد خصهم الرسول ﷺ بالعناية، وأوصى بهم خير الوصاية، وكما هو معروف إن لنا بهم نسباً وصهراً عريقاً، من هاجر أم إسماعيل، ومارية أم إبراهيم ابن نبينا محمد ﷺ.

لهذا ولغيره فنحن نودهم ونجاملهم، ونتعاون معهم فى الخيرات بكل الصدق ونخصهم بالمروءات، ولكننا لا نجادلهم فى الدين على الإطلاق، إلا إن أبدى أحدهم رغبة فى التعرف على الإسلام، فإذا انتقل الأمر إلى العصبية أنهينا الحديث بحزم، منعاً من الفتن، وقلنا: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى : ١٥].

٥- وعموماً.. وعلى الإجمال نقول :

إن الطوائف على أنواعها - فى رأينا - أربعة أقسام :

أما الأول: فالصوفية، وهم أماننا طائفتان فقط، مهما تعددت مشاربهم، واختلفت أسماؤهم: طائفة شرعية، فهم أمة واحدة، لا يفرقها تعدد الأسماء، ولا اختلاف التقاليد، ما دامت تتركز جميعاً من نبع الشريعة الدفاق الطاهر، على اجتهاداتها فى الله علماً وعملاً. أما تعدد الأسماء فضرورة طبيعية سطحية، لا تغير وحدة الحقيقة والغاية فى الجميع، ولهذه الطائفة منا حقوق الأخوة الكاملة.

ثم طائفة بدعية، فهى أمة واحدة على اختلاف أسمائها وألوانها وتقاليدها، لا يغنى عنها من الله والناس ما تعتصم به من قشريات ورسميات، ودعاوى ودعايات، ونسأل الله لنا ولهم التبصير والهداية. أما ثانياً : فجماعات الخدمة العامة، وهى بأنواعها أماننا فرقتان: صالحة وتالفة.

فالصالحة: إما عاملة، فلها علينا التأييد ما استطعنا، وإما خاملة فلها منا المعونة ما استطعنا.

والتالفة منها: المهرجة والكاذبة والمنافقة والمخاطرة والخبيثة والمتاجرة، وما يلحق بهذه الصنوف علواً وسفلاً، فلها علينا الإرشاد، وللناس علينا حيالها البيان.

أما الثالثة: فالهيئات المذهبية الدينية بأنواعها، وهذه لها علينا العون ما استطعنا فيما اتفقنا فيه، ولها منا العذر مع النصح الرفيق فيما اختلفنا عليه، أى: سلم حازم، وأدب دائم، وحتى الهيئات التى باعت نفسها لغير الله، فلهم منا الدعاء وحسن الرجاء.

أما شأننا الخاص، فهو التوسط والاعتدال، والتيسير والتقريب، والتسديد، والجمع بين الآراء، ما دام ثمَّ طريق أصولى من رخصة أو عزيمة، أو حكم مقبول، جمعاً لشمل الأمة، وحذار من تمزيقها فوق ما هى ممزقة، من أجل سطوح وتوافه. وسفاسف وشبهات، لو أنصف

الناس لتجعلوا أن يجعلوها أساساً للخلاف، سيما وهم يرون بعيونهم قواعد الإسلام وأصوله وأركانه المتفق عليها، تخر وتشقق وتخور وتذوب، وما لهم من أجلها نصيب من جهاد صحيح، إلا الإمعان في التفريق والتمزيق، وإشعال نيران العدا بين الأسر والأفراد.

أما الرابع: فالتشكيلات الثورية، والإرهابية، والانقلابية، والجماعات المتشددة والمتطرفة، والقائمة بالتبعية والعمالة بأنواعها، وموقفنا منها: الإنكار المطلق، بقدر ما عانت منها الأمة من التعنت والتمزق والتعادي، وإتلاف العقائد والأخلاق والأعمال، وفقدان المصالح، ومهازل التخريب العقدي والأدبي والحسي المخيف.

على أن السياسة الوطنية الإسلامية الجادة النقية جزء حتمي من عقائدنا الإسلامية الأكيدة، ثم مبادئنا وتقاليدنا، نخدمها على أسلوبنا الإسلامي، في حدود طاقتنا، وذلك بتربية إخواننا تربية إسلامية سمحة سليمة، ثم نترك كل أحد لما يختار لنفسه من الأحزاب أو الاستقلال، ليخدم بالتدرج والإقناع والحكمة والحب والسلام سياسة الإسلام.

* وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم *

أمانة الدعوة

بالعشيرة (والطريقة) المحمدية

نص الخطاب التاريخي الصوفي المركز
الذي حمله وفد العشيرة و (الطريقة)

باشراف الدكتور الأخ

«أحمد السايح» الأستاذ بجامعة الأزهر

نيابة عن العشيرة والطريقة

إلى المؤتمر الصوفي العالمي المنعقد بليبيا،

وبمشاركة حكومتها وشعبها ووفود

الصوفية من أنحاء العالم، في (سبتمبر

١٩٩٠ م)، بمناسبة ذكرى استشهاد الصوفي

المجاهد الشيخ عمر المختار رضي الله عنه.

نص الخطاب التاريخي الصوفي المركز الذي حمّله وفد العشيرة والطريقة المحمدية بإشراف الدكتور أحمد السايح، الأستاذ بجامعة الأزهر، نيابة عن العشيرة والطريقة، إلى المؤتمر الصوفي العالمي المنعقد بليبيا، وبمشاركة حكومتها وشعبها، وهو البحث الذي اعتمده المؤتمر، ولم يعتمد غيره، بقلم فضيلة الإمام الراحل، ويعتبر بحثاً غير تقليدي.

وقد حضر من ليبيا لدعوة العشيرة بمصر السيد وزير الأوقاف بها، مع السيد عميد الطرق الصوفية بليبيا، أتابهما الله.

وقد انعقد المؤتمر هناك ثلاثة أيام من (١٩٩٥/٩/٢٩)، بمناسبة ذكرى استشهاد السيد الصوفي المجاهد الإمام الشيخ عمر المختار رضي الله عنه.

وهذا هو نصّ البحث بعد حذف المقدمة، والخاتمة أيضاً، اختصاراً والله الموفق المستعان .

حمداً لله، وصلوة وسلاماً على مصطفىاه، ومن والاه، في مبدأ الأمر ومنتهاه

* مقدمة بين يدي البحث :

الكلام في سبب تسمية (التصوف)، واشتقاق لفظه أو عدم اشتقاقه، وتعليقات التسمية، وما يتعلق بذلك مما تحدث السادة فيه، أمثال الشيخ (القشيري) في رسالته، فإنما كل ذلك من السطحيات والقشور التي لا ترتبط بصميم هذا الموضوع الخطير، وإنما نحن الآن أمام حقائق واقعية تسمى باسم (التصوف) بكل تاريخه، والعلم به، ويسمى أهل هذه الحقائق باسم (الصوفية) دون التأثر بأصل التسمية أو سببها أو اشتقاقها، ولهذا لم نرجح الاهتمام بهذا الجانب، بجوار اهتمامنا كله بالجانب العملي الواقعي الذي اتفق عليه الأكثرون من أهل العلم والدعوة، وعارضته قلة ممن تسموا باسم (السلفية) لأسباب مختلفة، منها المرفوض وغير المرفوض. على أن الصوفية كلها على اختلاف أسمائها هي مذهب واحد، يبدأ بـ(التوبة) وينتهي بـ(المعرفة)، وأما التعدد ففي المناهج ووسائل السلوك، ليجد كل ما يناسبه.

فـ(الصوفية والسلفية) اسمان مستحدثان لفكرين أو دعوتين هما في الواقع (بعد تخليص كل منهما مما ليس منه) شيء واحد، هو:

الإسلام السمح القوي الرقيق الوثيق، كما سنرى إن شاء الله في هذا البحث، الذى أردنا به تجميع الأمة وتكثيلها بعد تفرقها وتمزقها؛ فلعل وعسى، والله الموفق المستعان.

١- التصوف الصحيح من الوحي :

التصوف الصحيح جزء أصيل من الإسلام :

أعنى: التصوف الذى ندعوا إليه، وندافع عنه، وتتشرف بالانتساب إليه، هو: ما جاء به الوحي، فيما ثبت بالكتاب والسنة قبل كل شيء.

إذن: فالتصوف قديم قدم الإسلام، وذلك أن من أهم أصول التصوف : (١) التوحيد (٢) والعلم (٣) والعبادة (٤) والأخلاق (٥) والعمل الشامل على ما تحمله هذه العناصر من فصول شتى وفروع، وهذه كلها منصوص عليها فى كتاب الله بكل صراحة، لا تقبل التأويل، ولا التحوير ولا التبديل.

وهكذا يتأكد بلا مرأ أن التصوف جزء أصيل من صميم الإسلام؛ لأن هذه العناصر أصول لا خلاف عليها فى حقائق الإسلام على الإطلاق .

أما المستحدث فى علم التصوف فهو المستحدث فى كل علوم الإسلام حين أخذت هذه العلوم طريقها إلى التقعيد والتأصيل

والتفصيل والتسجيل، فى عهد التدوين منذ بدأ فى أواخر القرن الأول الهجرى فما بعده ، حتى نضج فى أوائل القرن الثالث مع غيره من علوم الإسلام، فكان علم التفسير وعلم الحديث، ثم علم الأخلاق الذى هو علم التصوف القويم، وهو ثمرة بقية علوم الدين كلها، وقد اندس فى علم التصوف ما اندس فى بقية علوم الإسلام من الدخيل والمفتري، بحكم مقتضى حركة الفتوح والتطور، وحكم البيئة ولؤم أعداء الإسلام، فقد كان التصوف ثورة عارمة على الترف والانحلال والاستعجاب والفساد الطارئ على الإسلام بحكم الفتوح؛ فالتصوف (صلاح وإصلاح).

وقد اختص التصوف بخدمة (علم الأخلاق التطبيقى) (وهو الغاية الكبرى من التدين جميعاً) لترويض الوحشية الإنسانية والارتقاء بها فى معارج التسامى إلى مقامات الخلافة عن الله فى الأرض، ثم الترقى فى مراتب القرب والولاية والوصول ، وفى كل ذلك تفصيل وتفريع متكامل لا يتسع له هذا المقام؛ فالمجتمع فرد مكرر يصلح الكل بصلاحه، ويفسد بفساده.

وليس بشيء من التصوف هذا التخلف أو القعود أو الانطواء أو الانفرادية أو التقوقع أو التبلة، فذلك جميعاً ليس من الإسلام الذى هو خلافة الله على الأرض، بما لا بد للمسلم من أنواع العلوم وتطبيقها، والزيادة عليها فى كل جوانب الفكر، والفعل الإيجابى

التقدمي السليم. عندئذ يخطو خطواته الثابت نحو التصوف، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، أو أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، فهو في سعادة دائمة بمعاملة الله والرضا عنه.

٢- الصوفية في القرآن هم عباد الرحمن :

وقد وصف القرآن الصوفية الذين ذكرنا بعض شأنهم من قبل وحفظ الزمن تاريخهم العظيم - وصفهم وصفاً مُجمَعاً ومفرداً، فالوصف المجمع نجده في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ...﴾ الآيات المفصلة من أواخر سورة الفرقان، وفي قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ الآيات من أواسط سورة الأحزاب، وقوله تعالى ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ الآيات من سورة التوبة، والشروح المستفيضة لها جميعاً عبارة وإشارة.

أما الوصف المفرق فهو في الآيات الكثيرات الداعية إلى الفضائل والعبادة والتسامي، أمراً ونهيًا، ثم القصص القرآني الشارح لبعض هذه الآيات الجوامع نصّاً أو تأويلاً، وهي كثر لا يفنى.

(فالصوفية) عندنا كما هي في القرآن رجالها هم ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، فهم أهل مقام (العبودية) الأسمى، التي شرف الله بها الانبياء فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ - ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ - ﴿يَا عِبَادِي...﴾ - ﴿يَا عِبَادِ...﴾ الآيات، ثم من بعدهم

الوارثون من الزُهَّاد والعبَّاد والعلماء والدعاة، والعاملين لوجه الله.

فإذا كان قد غلب على السادة أهل (العبودية) اسم (الصوفية) بفعل الحياة، وحركة الفتوح، واختلاف الظروف وحكم البيئات، وتفاعلات المجتمع، وما يرتبط بظاهر دورة الحياة، مما ذكره أهل العلم الراشد والسادة المؤرخون، فهذه كلها قشور وسطوح، لا تغير من واقع الأمر، ولا من الحقيقة واللباب شيئاً.

فحقيقة التصوف إذن، وأخذاً مما قدمنا، ومن واقع الأمر، وعمل المتزمين من رجاله، بداية ونهاية: هو (التقوى) و(التبتل)، أى: هو (التخلي عن كل دنى، والتحلى بكل سنى)، وحول هذه المعانى تدور كل تعريفات أهل الحق للتصوف الواعي المستنير.

٣- توضيح جديد :

ولما كان التصوف - في اعتقادنا وفي عرفنا - هو: أنقى وأرقى (قيمة) إيمانية، والقيمة الإيمانية بحقيقتها وهيولائها: (قمة) غير مكررة، والبلوغ إلى القمة مما لا يتيسر إلا لأهل الله، ممن سبقت لهم المشيئة الربانية، بما لا بد منه من طول استمرارية الجهاد الأصغر والأكبر معاً، ومن الصبر على المشاق الذاتية في هذا الجهاد الشامل المتكامل المحيط بالجهاد الفكري والتطبيقي والحضارى.

ومن ثمَّ كانت هذه القيمة هي: (الربانية) التي وجهنا إليها القرآن

﴿كونوا ربانيين﴾ ، ودعنا من محاولة رد التصوف إلى الاشتقاق اللغوي أو الإشراق المعنوي، ونحو هذا، فإنها كما أسلفنا قشور وسطوح لا تغنى ، إنما التصوف على كنهه وذاتيته، فهو كما نقرر ونكرر: (التزكية) التي من الله بها على المؤمنين في الآيتين الشريفتين ﴿يعلمهم ويزكيهم﴾ ثم ﴿يزكيهم ويعلمهم﴾ فهو روح التدين، والتدين روح الحياة، بمقتضى الاستخلاف الإلهي والاستعمار القرآني للأرض، وقيادة الدنيا إلى منتهى رتب التسامى الرباني، والإنسانية الرفيعة، وسيادة الدنيا، بأسباب الحضارة، ومن هنا كذلك كان التصوف هو (الربانية الإسلامية) كما قدمنا.

ثم إن التزكية على ما جاءت في الآيتين هي جذور شجرة (التقوى) وثمرتها، وحسبك أنه ما أنزل الله من كتاب، ولا أرسل من رسول إلا (بالتقوى) ، فالتقوى هي كلمة السر الجامعة لقضايا الدارين وحقوقهما معاً منذ آدم، وإذن: فالتصوف الحق هو (التقوى) على معانيها ، ولا نُحَاسَبُ على ما عند غيرنا ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ .

٤- تجاوزات المتصوفة :

وإذا كان في الصوفية من بالغ في التزهّد أو الاعتزال أو الانطوائية أو نحوها، أو من شطح مع الفلسفة والتيه في دروبها،

أو العقلانية المتفلتة، وتداعيات ذلك كله، أو من خرج عن التصوف، بممارسة البدع والمناكر والدخيل على التصوف الإسلامي الصحيح؛ فهؤلاء جميعاً لا يخلو منهم تجمع ولا مجتمع ولا مذهب، وليس هم ذات التجمع أو المجتمع أو المذهب، فهم من ضروريات الحياة وهوامش الخلق لاستكمال دورة القدرة، و من دلائل احتوائها للمتناقضات، وهذه لا يترتب على وجودها أو فقدانها حكم عام أو قانون محدد، أو مقدمات للنتائج ، فلا يقاس بهم ولا لهم ولا عليهم في واديهم الشاسع المخصوص بهم، إنما غالباً يكون شأنهم شأن المرضى في عوالم الأصحاء.

ثم نخرج من كل ذلك بأن التصوف هو: (طلب الكمال)، و(طلب الكمال) فريضة على كل مسلم لا خلاف قط على هذا بين معترف ومنكر.

نعم : الإسلام شيء غير المسلم، فهل نترك الإسلام لأن مِمَّنْ ينتسب إليه بعض القتلة أو السارقين أو الزناة أو نحوهم؟! .

فكذلك التصوف شيء غير الصوفي أو المتصوف، فهل نترك التصوف بكل ما له من الفضائل لأن ممن ينتسب إليه منحرفين أو منحرفين أو مقترفين أو جاهلين أو نحوهم، طبعاً وشرعاً وعقلاً نقول: (لا ولا... ثم لا، ولا) ! .

وهنا لا بد من اعتبار الاصطلاح ، فالصوفى هو: الواصل المقرب، والمتصوف هو: السالك الصادق، والمتصوف أو المستصوف هو: الدعى الكذاب. على أى صورة أو كيفية أو وضع يكون.

وبهذا نعرف أنه ليس من التصوف (الطبل، والزمر، والرقص) ومحرمات زيارة الأضرحة، والمثالب الملحقة بالموالد^(١)، وتحريف اسم الله، والشطحات المفتعلة، أو الفلسفات المنحرفة ، أو المبتدعات المتفق على إثمها ورفضها، أو الدروشة والتبلة، أو ادعاء الكرامات والخوارق، أو القول بمخالفة الشريعة للحقيقة ، والضلال والتحريف، أو التعطل والبطالة أو نحو ذلك، مما أجمع علماء التصوف والتسلف على مخالفتها للشريعة قولاً واحداً، فكل هذا ساقط بالطبع والوضع من عداد تصوف أهل الله؛ فلا ينحسب على أهل الحق، ولا يؤاخذون به.

٥- المتصوف إنسان نموذجى :

وإن مما يتغيا التصوف الإسلامى هو: تشكيل الإنسان النموذجى، أى: طالب الكمال، أى: الإنسان القائم بكل الصدق بحق الله

(١) الحقيقة أن الطرق الصوفية لا ذنب لها فيما يشوه الموالد من الملامى والمقامى والغرز والمراقص والمسارح الهابطة ، فهذا شأن الحكومة، وهى التى تصرح لهم، شاء الصوفية أم لم يشاءوا.

والناس، والجامع بين مطالب الدنيا والدين ، بلا رياء، وفى سماحة ويسر ورفق وتواضع، مع المسابقة إلى خير الحياتين تديناً وتقدماً وعلماً، وسيادة وأدباً وشموخاً ورفعة، فحيث كان الصوفى الحق الواعى الراشد، كان الخلق الرفيع والحب والسلام والبشائر والفضل والتجديد والمواساة والمجاملات، وسعة الصدر والتماس الأعذار للناس وبعد النظر، فى إشراقات من لمحات الغيب، ونفحات الانس بالله، مع الممارسة والتعامل مع مستحدثات العلم والحضارة والتقدم، باعتبار ذلك جميعاً من ألوان وصنوف عبادة الله التى بدونها لا تتحقق خلافة الله على الأرض.

فى حين ترى من خصوصيات المذهب المقابل: المفاخرة بالتعصب والجمود والتكشير ودعوى احتكار الصواب، مع الكبر والتعالى والتغالى، والاشمئاط والتجهم والعبوس، والفظاظة والبذاءة، وسوء الظن واحتقار الآخرين، حتى ليعتقد بعضهم أن لعن أو تكفير أو تشريك أو شتم أو تبديع أو إيذاء من لم يكن منهم هو: التعبد، وهو: الدين الصحيح، وهو مكارم الأخلاق عندهم، ولا قوة إلا بالله، والحمد لله، ليس شىء من هذا من صفات الصوفية الأبرار.

كل هذا الميراث الصوفى الأصيل مدد موصول من رسالة مولانا (إمام الصوفية الأعظم) سيد النبيين رسول الله ﷺ، ثم من بعده

كرام صحابته، ثم تابعوهم، ثم من سار على منهجهم الذى خضعت له الدنيا، تحت لواء العلم والعبادة والفضيلة، على كل مستوى يتاح للناس. خصوصاً التجديد والاختراع والابتكار الفكرى والعملى.

ولا يفوتنا أن نسجل أن أول من أسس (الربط أو الرباطات) على الشواطئ وعمرها هم الصوفية، للدفاع عن بيضة الإسلام، وهم كثير كثير، سجل التاريخ لهم ما لم يكن لغيرهم، ولا نطلب من الناس لكى يعرفوهم أن يراجعوا كتب أئمة الصوفية، كالشيخ القشيري والشيخ السهروردي وأبي حامد الغزالي والمحاسبي وابن عطاء الله والشيخ ابن زروق، ومن قبلهم أو بعدهم، ولكن يكفيننا أن يعودوا إلى مثل رسالة (الصوفية والفقراء) للشيخ ابن تيمية ثم إلى فتاويه الهادئة، ثم إلى الشيخ ابن القيم وشرحه على كتاب الشيخ الهروي، وكتابه (الروح)، (والحادى)، ثم إلى السادة كبار أئمة الحديث الشريف وعلم الرجال. فلهم أسنادهم المباركة إلى التصوف ورجالهم.

إن التصوف النقى، إكسير الإسلام، وخلاصته وعصارتة، إنه (الإيمان والعمل)، إنه (الصلاح والإصلاح)، إنه (العلم والتطبيق)، إنه (الحب والسلام)، إنه (عبادة السعادة، وسعادة العبادة)، إنه أرقى مستويات الأدب الرفيع، إنه الصفاء والتجلى، والإشراق والقرب، والانس بالملأ الأعلى!! إنه (طلب الكمال) إنه (ربانية القرآن).

ولا ذنب للتصوف الحق فيما داخله والتصق به من جهالات وخرافات، ومبتدعات وفلسفات منكرات، كما كررنا فقد داخل علم (التفسير) سيل جارف من الإسرائيليات والحماقات العلمية والجاهلية، وداخل (التوحيد) أو حال التمثيل والتعطيل وغيره. وداخل علم (الحديث) فيضان مريع من الموضوعات والمناكير، وداخل (علم الفقه) ما لا يحصى من الأقيسة المضللة، والفروضات النائية والخيالية المستحيلة، والحيل الملقفة المرفوضة، وهكذا... فليس من الإنصاف أبداً أن يؤاخذ التصوف بما لا ذنب له فيه، ويعتذر عن غيره، والقضية هنا وهنا واحدة. بلا تشبيح ولا تزوير.

وفى ذلك مقنع لطالب الحقيقة العادل، الذى يريد وجه الله، لا التعصب ومجرد الغلبة والعمالة؛ لإدراك مطالب الحياة الفانية، ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾، ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾، ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ «ومن يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادى له».

٦- نماذج من رجال التصوف :

لمجرد الذكرى والإنصاف العلمى، والتصوف الإيجابى، نذكر هذه النماذج الصوفية من مختلف أنحاء العالم الإسلامى، وهى على قلتها تدل على ما نتغيها إن شاء الله.

- ١٠- الإمام ابن دقيق العيد ومواقفه الخالدة بمصر والشام ، ومؤلفاته .
- ١١- الإمام الجليل الشيخ علىّ أبو الحسن الشاذلي، وموقفه من الحروب الصليبية بمصر والشام، بعد أن كف بصره، ومن حوله كبار علماء مصر ومنهم الحافظ زكيّ الدين المنذرى، والعز بن عبد السلام، وكبار علماء الصوفية في عصره .
- ١٢- ونذكر من رجال هذا القرن الأمير عبد القادر الجزائري الصوفى الشاذلي، وموقفه من فرنسا المستعمرة بالجزائر.
- ١٣- ونذكر من رجال هذا القرن السلطان عبد الحميد ، وهو صوفى شاذلي، وموقفه أمام تهويد فلسطين وأمام دول أوربا الصليبية.
- ١٤- ونذكر حبيب العشيرة الأمير عبد الكريم الخطابي الصوفى الشاذلي ، وموقفه الكبرى بجيوشه أمام فرنسا بالمغرب .
- ١٥- ونذكر حبيب العشيرة الإمام الصوفى الخضر حسين شيخ الأزهر وجهاده في المغرب العربى قبل اللجوء إلى مصر وبعده .
- ١٦- ونذكر حبيب العشيرة الإمام المبشر الطرازى مفتى آسيا النقشبندى وجهاده ضد الشيوعية، قبل وبعد لجوئه إلى مصر .
- ١٧- ونذكر الشهيد العظيم عمر المختار الصوفى . ومواقفه وجهاده ضد إيطاليا بأرض ليبيا ، ومن قبله الإمام السنوسى الصوفى .
- ١٨- ونذكر المجاهد الجليل أحمد عرابى الصوفى الشاذلي، وموقفه ضد الإنجليز ورفاقه الصوفية الكرام فى مصر ريبلان .

- ١- الإمام على بن أبى طالب، وهو بحمد الله غنى عن التعريف بمواقفه الخالدة وآثاره الماجدة .
- ٢- الحسن بن على بن أبى طالب، وهو أيضاً غنى عن التعريف بسوابق الفضل والحكمة .
- ٣- الإمام الحسين بن على، بما أسلف من مواقف المجد والعلاقة بالله، وما كان من مشاركته فى فتح شمال أفريقيا وأطراف آسيا بسيفه ولسانه وأسلوب حياته .
- ٤- السادة أبناء وأحفاد الحسن والحسين، ومفاخرهم العلمية والحربية والتعبدية واضحة خالدة .
- ٥- الإمام المالكي الجليل (أسد بن الفرات) فاتح صقلية، وحياته العلمية والحربية والصوفية ثابتة .
- ٦- الإمام الصوفى الثرى عبد الله بن المبارك، وقد كان يحج عاماً ويرابط عاماً، وذكره معروف موصوف .
- ٧- ولى الله سيدى أويس القرنى، وقد استشهد فى إحدى معارك الإمام علىّ .
- ٨- الإمام الصوفى أبى حامد الغزالى، وموقفه من الخليفة العباسى حين تخاذل أمام زحف الأعداء، مع مؤلفاته الخالدة .
- ٩- الإمام الجليل الشيخ العز بن عبد السلام، وموقفه أمام أعداء الإسلام بمصر والشام، وموقفه من المماليك ، ومؤلفاته .

١٩- ونذكر المجاهد السيد نور المشايخ المجددى، وتحريره
بدرأويشه النقشبندية الافغان من الإنجليز بعد الحرب العالمية.

٢٠- والشيخ الصوفى النقشبندى (شامل البوسنى) ثم الشيشانى
ومواقفه برجاله ضد الشيوعية فى آسيا والبلقان ثم رجاله الآن.

وعلى الجملة نذكر: (محمد على جناح) مؤسس باكستان الصوفى
القادرى، ورفيق جهاده شاعر باكستان الاكبر (محمد إقبال) الصوفى،
كما لا ننسى فى مصر الشيخ الشرفاوى وعمر مكرم، والشيخ محمد
عليش، والشيخ حسن العدوى، والشيخ أبو عليان الصعيدى،
والشيخ أحمد الدردير، وكانوا جميعاً من خيرة الصوفية الأبرار
الأخيار، ولهم فى الجهاد الاكبر والأصغر أوفر نصيب، وإنما هذه
مجرد نماذج من رجال التصوف فى دنيا المسلمين، ومن أمثالهم آلاف
أو ملايين من قبل ومن بعد، رضى الله عنهم جميعاً.

٧- وحدة الوجود والفناء :

كل حملات خصوم الصوفية تدور حول كلام بعضهم فيما يشبه
(الاتحاد أو الوحدة)، وإنما هى صور من (الفناء)، الذى أقره الشيخ
ابن تيمية وشرحه بأكثر مما شرحه الصوفية أنفسهم، هذا ما لم يكن
مدسوساً عليهم بفعل النساخين ذوى الأغراض الخبيثة، وهو الذى
نرجحه وكما سجله الشيخ الشعرانى، وما كشفه المحققون.

ومن أشهر من تدور الخصومة معهم أمثال الشيخ: (ابن عربى،

وابن الفارض، وابن سبعين، والحلاج)، وكلامهم عندما محتمل
قابل للتأويل العلمى، من أكثر من وجه، والعلم الإسلامى يقرر أنه
إذا كان للكلام وجه واحد مقبول من مائة وجه مرفوض، تعين الأخذ
بهذا الوجه الواحد المقبول بالإجماع، وكلام هؤلاء وأمثالهم قابل
للتأويل من أكثر من وجه، وعند فرض عدم إمكان التأويل، فإننا
نفوض أمرهم إلى الله، ما داموا على الشهاداتين، مع النصيحة
والإرشاد.

ومن جهة أخرى فإنه لم يبق اليوم أبداً أحد يتعامل مع كلامهم
- إن صحت نسبته إليهم - على الإطلاق، إلا آحاد من علماء التاريخ
الفلسفى، فقد أصبح كلامهم من (حفريات الآثار) الفكرية، لا يتعلق
به إلا المؤرخون المتخصصون، وهم قلة نادرة، ليسوا دعاة، ولا
شيوخ طرق على الإطلاق فلم يبق فى عصرنا من يهتم بهذا الجانب.

إن الذى يجب علاجه فى الصوفية، هو ما داخلها من البدع
والمناكر بحكم الجهالة، ومن الحرام الشنيع أن يؤخذ أهل هذا العصر
بما كان من أهل العصور السابقة، وإن كان الصوفية اليوم أفضل ألف
مرة من العصور السابقة، وإن كان الصوفية اليوم أفضل ألف مرة من
الامس، بحكم الصحوة الكبرى التى ترعاها العشيرة المحمدية،
فضلاً من الله ونعمة أقربها من أقر، وجعلها من جحد.

٨- وكلمة أخيرة :

لا شك أبدأ في أن قطاع الصوفية (الملتزمة وغير الملتزمة) هو أكبر قطاع في الأمة الإسلامية بصفة عامة، ومن ثم وجب الاهتمام بها بما لها من الأثر البالغ، ولهذا تعينت العناية بإصلاحها لا بتدميرها، بما لها من تاريخ نشر الإسلام في العالم وخدمته بما لم يكن لغيرها.

ومما يحسب في ميزان الصوفية الصحيحة أنهم يحبون غيرهم ويدعون له ولو خالفهم، فرداً أو جماعة، وأنهم يدعون إلى التجميع، والترابط الإسلامي، وتجاوز الخلافات الفرعية، وأنهم يبرءون من كل أسباب التفريق والتخريب والتدمير، والإرهاب والتعصب المرير، وأنهم يدعون إلى التعاون في المتفق عليه (وهو كثير جداً)، كما يدعون إلى الاعتذار عن مخالفاتهم، مع إمكانية الحوار والمناصحة المؤدبة المحببة.

وهم مع اهتمامهم التام بما تيسر لهم، وما رجح عندهم بدليله، من أساليب التعبد، وتحري معالي الأمور، والتماس مكارم الأخلاق، ليس فيهم (سرية) أو انغلاق، ولا تحجر أو استتبار للأوليات، التي يفرض على المسلم أن يشارك فيها بكل طاقته، فكل هذا عبادة يسعد الصوفى المستنير بممارستها كل السعادة ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾.

فالصوفى الحق لا ينسى أبداً واجبه أمام الأزمات الاقتصادية،

والتطورات الاجتماعية، والتحديات العلمانية، والضغط الأجنبي على الرقعة الإسلامية، ولا ينسى لزم الصهيونية، ومحاولة هيمنتها على مقررات الشرق الإسلامى والمغرب العربى، ولا ينسى التحولات الفكرية والخلقية والبيئية، فيما يعقد من مؤتمرات لها، تحت مسميات مطاطة، كلها تعمية وتعتيم.

وهو لا ينسى مؤامرات اضطهاد الإسلام من الصليبية، ومن عناوينها ما يجرى بفلسطين والقدس، وما يجرى في البوسنة والشيشان، وبقية جمهوريات آسيا الإسلامية بعد تحررها من الشيوعية الدموية.

ولا ينسى الصوفى المستنير ماذا يراد بمصر عامة، وبالآزهر خاصة، واتخاذ الدعوة (السلفية) المزعومة وسيلة إلى زعزعة الثقة بهما، وصرف الناس عنهما، بالمال الحرام المرصود من وراء الحدود، لكيما تقصى مصر من الزعامة والسيادة، والآزهر عن القيادة والريادة!!.

الصوفى المستنير متفاعل مع ما حوله من التحركات والتجولات، على ما يرضى الله إيماناً واحتساباً (هذا هو تصوفنا) ﴿كل يعمل على شاكلته﴾ و﴿كل ميسر لما خلق له﴾، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه المفتقر إلى الله وحده

محمد زكى إبراهيم

خادم العلم والتصوف الصحيح

معلومات جغرافية وإحصائية

عن العالم الإسلامي (٥)

اللغة	العاصمة	السكان	المساحة كم ^٢	البلد
لغة خاصة	سرنجور	٥,٠٠٠,٠٠٠	٢٦٠,٠٠٠	كشمير
البنغالية	دكا	١١٤,٧٠٠,٠٠٠	١٤٣,٩٩٨	بنجلاديش
المالديف	مالي	٢١١,٠٠٠	٢٩٨	مالديف
الملايوية	كوالالمبور	١٦,٧٠٠,٠٠٠	٣٢٩,٧٥٠	ماليزيا
الملايوية	بروني (دار السلام)	٣٤٥,٠٠٠	٥٧٩٥	بروني
إندونيسية	جاكرتا	١٨٧,٧٠٠,٠٠٠	١,٩١٩,٤٤٠	إندونيسيا
العربية	الخرطوم	٢٤,٥٠٠,٠٠٠	٢,٥٠٥,٨١٣	السودان
العربية	طرابلس	٤,١٠٠,٠٠٠	١,٧٥٩,٥٤٠	ليبيا
العربية	تونس	٧,٩٠٠,٠٠٠	١٦٣,٦١٠	تونس
العربية	الجزائر	٢٤,٩٠٠,٠٠٠	٢,٣٨١,٧٤٠	الجزائر
العربية	الرباط	٢٥,٦٠٠,٠٠٠	٤٤٦,٥٥٠	المغرب
العربية/الفرنسية	نواكشوط	٢,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٣٠,٧٠٠	موريتانيا
العربية/السواحلية	مقديشو	٨,٠٠٠,٠٠٠	٦٣٧,٦٥٧	الصومال
العربية/الفرنسية	جيبوتي	٣٢٩,٠٠٠	٢٢,٠٠٠	جيبوتي
الفرنسية	باماكو	٨,٩٠٠,٠٠٠	١,٢٤٠,٠٠٠	مالي
الفرنسية	أوجادوجو	٨,٧٠٠,٠٠٠	٢٧٤,٢٠٠	بوركينافاسو
الفرنسية	نيامي	٧,٤٠٠,٠٠٠	١,٢٦٧,٠٠٠	النيجر
الفرنسية	إنجامينا	٤,٩٠٠,٠٠٠	١,٢٨٤,٠٠٠	تشاد
الفرنسية	بانجى	٢,٨٠٠,٠٠٠	٦٢٢,٩٨٤	أفريقيا الوسطى
الفرنسية	دكار	٧,٥٠٠,٠٠٠	١٩٦,١٩٢	السنغال

اللغة	العاصمة	السكان	المساحة كم ^٢	البلد
العربية	القاهرة	٥٤,٨٠٠,٠٠٠	١,٠٠١,٤٤٩	مصر
العربية	الرياض	١٦,٩٠٠,٠٠٠	٢,١٤٩,٦٩٠	المملكة العربية السعودية
العربية	المنامة	٠٤٩٧,٠٠	٦٢٠	البحرين
العربية	الكويت	٢,٠٠٠,٠٠٠	١٧,٨١٨	الكويت
العربية	الدوحة	٤٦٩,٠٠٠	١١,٠٠٠	قطر
العربية	أبو ظبي	٢,١٠٠,٠٠٠	٨٣,٦٠٠	الإمارات العربية المتحدة
العربية	مسقط	٢,٣٠٠,٠٠٠	٢١٢,٤٦٠	سلطنة عمان
العربية	صنعاء	١١,٥٠٠,٠٠٠	٥٢٨,٠٠٠	الجمهورية اليمنية
العربية	دمشق	٢,٠٠٠,٠٠٠	١٨٥,١٨٠	سوريا
العربية	بيروت	٣,٣٠٠,٠٠٠	١٠,٤٠٠	لبنان
العربية	القدس	٥,٥٠٠,٠٠٠	٢٧,٠٠٠	فلسطين (المحتلة)
العربية	عمان	٣,٠٠٠,٠٠٠	٩١,٨٨٠	الأردن
العربية	بغداد	١٨,١٠٠,٠٠٠	٤٣٤,٩٢٤	العراق
التركية	أنقرة	٥٥,٤٠٠,٠٠٠	٧٨١,٠٠٠	تركيا
الفارسية	طهران	٥٣,٩٠٠,٠٠٠	١,٦٤٨,٠٠٠	إيران
البشتو/الفارسية (العربية والتركية)	كابول	١٤,٨٠٠,٠٠٠	٦٧٤,٤٩٧	أفغانستان
الأردنية	إسلام آباد	١١٠,٤٠٠,٠٠٠	٨٠٤,٠٠٠	باكستان

* نقلاً عن كتاب (الوحدة الإسلامية) للأستاذ (محمود أحمد عمر الشاطري) أتابه الله.

(الأقاليم المسلمة في أوروبا)

يوغوسلافيا	سكانها ٢٣,٧٠٠,٠٠٠ / ١٧٪ مسلمون
بلغاريا	سكانها ٩,٠٠٠,٠٠٠ / ١٨٪ مسلمون.
القرم	شبه جزيرة طرد منها المسلمون وهجروا إلى سيبيريا ويطالبون بالعودة.

شمال القوقاز

داغستان	سكانها مسلمون.
شاشان	عدد السكان ١,٢٠٠,٠٠٠ معظمهم مسلمون.
أوسيتيا الشمالية	عدد السكان ٦٠٠,٠٠٠ نسمة معظمهم مسلمون.
قبرديا - بلكاريا	عدد السكان ٦٢٥,٠٠٠ نسمة معظمهم مسلمون.
قراتشاي التركية	سكانها ٥٠٠,٠٠٠ مسلمون.
الأنينه	سكانها ٥٠٠,٠٠٠ مسلمون.

حوض الفولجا

جمهورية باشكيرية	عدد السكان ٤,٠٠٠,٠٠٠ / ٥٥٪ مسلمون.
جمهورية تاتارية	عدد السكان ٣,٥٠٠,٠٠٠ / ٧٠٪ مسلمون.
جمهورية الجورقاش	عدد السكان ١,٥٠٠,٠٠٠ معظمهم مسلمون.
جمهورية موروف	عدد السكان ١,٢٥٠,٠٠٠ معظمهم مسلمون.

البلد	المساحة كم ^٢	السكان	العاصمة	اللغة
جايا	١١,٢٩٥	٧٩٩,٠٠٠	بانجول	الإنجليزية
غينيا	٢٤٥,٨٦٠	٧,١٠٠,٠٠٠	كوناكري	الفرنسية
غينيا بيساو	٣٦,١٢٠	٩٧٤,٠٠٠	بيساو	البرتغالية
سيراليون	٧١,٧٤٠	٤,١٠٠,٠٠٠	فريتاون	الإنجليزية
ساحل العاج	٣٢٢,٤٦٢	١١,٦٠٠,٠٠٠	أبيدجان	الفرنسية
توجو	٥٦,٧٩٠	٣,٤٠٠,٠٠٠	لومي	الفرنسية
بنين	١١٢,٦٢٢	٤,٧٠٠,٠٠٠	بورتو نوفو	الفرنسية
نيجيريا	٩٢٤,٠٠٠	١١٥,٣٠٠,٠٠٠	لاجوس	الإنجليزية
الكاميرون	٤٧٥,٤٣٩	١٠,٨٠٠,٠٠٠	ياوندي	الفرنسية
أثيوبيا	١,٢٢١,٩٠٠	٤٩,٨٠٠,٠٠٠	أديس بابا	الأمهرية
أريتريا	١٢٩,٠٠٠	٥,٠٠٠,٠٠٠	أسمره	السواحلية
تانزانيا	٩٤٥,٠٩٠	٢٥,٢٠٠,٠٠٠	دودوما	السواحلية
جزر القمر	٢١٧١	٤٤٤,٠٠٠	موروني	السواحلية
(الأقاليم الإسلامية في أفريقيا)				
الجابون	٢٦٧,٦٦٧	١,١٠٠,٠٠٠	ليبرفيل	الفرنسية
أوغندا	٢٣٦,٠٠٠	١٧,٠٠٠,٠٠٠	كمبالا	الفرنسية
ألبانيا	٢٨,٧٤٨	٣,٢٠٠,٠٠٠	تيرانا	ألبانيا
يونان				يونان

الفهرست

م	الموضوع	الصفحة
*	تقديم وتعريف	٣ - ٢٠
-	سماحة الإسلام ويسره	٣
-	احترام الخلاف البناء	٤
-	خلافات لا قيمة لها	٦
-	ما يقبل الخلافة وما لا يقبل	٨
-	أنواع من الخلاف	١٠
-	تأريخ الخلاف وتدوينه	١١
-	الفرق بين النظرية والتطبيق	١٤
-	المهمة الحقيقية	١٦
-	هذا الكتاب ومؤلفه	١٨
*	(مقدمة المؤلف)	٢٣ - ٣١
-١	ما هو هذا الكتاب	٢٣
-٢	سماحة الإسلام	٢٥
-٣	أمثلة أخرى من علم الحمقى	٢٧
-٤	التصوف الصحيح جزء أصيل من الإسلام	٢٨
-٥	الصوفية في القرآن	٢٩
*	كتاب الفروع الخلاقية	٣٣ - ٨٠
-١	الاستفتاح	٣٣
-٢	تقدمة وتأصيل	٣٣
-٣	بداية انشقاق أهل السنة	٣٤
-٤	ماهية الخلاف القائم الآن	٣٦
-٥	قضية الخلافات المذهبية	٤٠

-٦	حكم الدين في الفروع الخلاقية	٤٦
-٧	حول قضية «تقليد الأئمة»	٤٧
-٨	الخلافات المذهبية والوحدة	٥٠
-٩	رغائب وسطحيات	٥٥
-١٠	أصل فكرة المسلم المشرك والولاء المذهبي	٥٧
-١١	التفرق المنهى عنه	٥٩
-١٢	هل تتعدد سبيل الحق	٦١
-١٣	حديث: اختلاف أمتى رحمة	٦٥
-١٤	طعن بعضهم على هذا الحديث	٦٧
-١٥	معنى «اختلاف الأمة» هنا	٦٨
-١٦	مشروعية العمل بأحد الوجهين	٧٠
-١٧	تجميع لا شرذمة	٧٤
-١٨	فلندع مهزلة الخلاف على الفروع	٧٧
*	خواطر بالغة الأهمية	٨١
*	كلمات ذات معنى	٨٦
*	التعريف بالمشيرة المحمدية وموقفها من	
	النظم المدنية والجماعات والهيئات المختلفة	٩٣ - ١٠٦
	البحث الصوفى الهام الذى أرسل	
	إلى المؤتمر الصوفى المنعقد بليبيا	١٠٧ - ١٢٥
*	تعداد المسلمين وبيانات حولهم فى العالم	١٢٦ - ١٢٩
*	الفهرست	١٣٠ - ١٣١
*	المؤلفات المطبوعة	١٣٢
*	نحت الطبع	١٣٣

* لفضيلة مولانا الإمام الراحل نحواً من مائة كتاب ورسالة،
وموجود منها الآن بالمركز الرئيسي، وفروع البيع والمكتبات:

- ١- أصول الوصول ج١
 - ٢- أهل القبلة كلهم موحدون.
 - ٣- أبجدية التصوف الإسلامى.
 - ٤- وظيفة الحديث الضعيف فى الإسلام.
 - ٥- قضية الإمام المهدي بين الرفض والقبول.
 - ٦- الفروع الخلافية ومشروعية العمل بأحد الوجهين فيها.
 - ٧- فواتح المفاتيح: الدعاء وآدابه وشروطه.
 - ٨- مفاتيح القرب: أدعية وأوراد وأحزاب.
 - ٩- الإسكات: بركات القرآن على الأحياء والأموات.
 - ١٠- عصمة النبي ﷺ ونجاة أبويه وعمه.
 - ١١- تحقيق كتاب «المرجع معالم المشروع والمنوع من ممارسات التصوف المعاصر» وهذا الكتاب للإمام السيد إبراهيم الخليل الشاذلى.
 - ١٢- مرآة أهل البيت فى القاهرة.
 - ١٣- ليلة النصف من شعبان.
 - ١٤- البداية.
 - ١٥- حول معالم القرآن
- * وغير ذلك من المطبوعات والرسائل.

* وتحت الطبع قريباً جداً إن شاء الله .

- ١- أصول الوصول ج٢.
- ٢- الإنفهام والإفهام أو قضايا الوسيلة والقبور.
- ٣- لحظات التجلي: مختارات من سور القرآن.
- ٤- الخوارق والكرامات.
- ٥- الفتاوى الفقهية.
- ٦- السلفية المعاصرة إلى أين؟!.
- ٧- إعلام الأعلام بأحكام التحية فى الإسلام.
- ٨- معارج البهاء الأقدس، تجليات ومنازلات صوفية.
- ٩- ديوان البقايا ج٢.
- ١٠- ديوان المثانى ج٣.

أخيراً يا أخى: إننا نناديك أن (حى على الفلاح)
فأقبل إلى الله تعالى قائلاً: (لييك اللهم لييك)